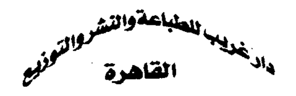
الرسول صلى الله عليه وسلم

لمحات من حياته وأنوار من هديه

بقلم

العارف بالله الإمام

عبد الحليم محمود



الكتـــــاب : **الرسول لمحات من حياته وأنوار من هديه**
المؤلـــف : د/ عبد الحليم محمـــود
رقــم الإيـــداع : ٩٨/١٠٨٤٤
الترقــيم الدولى : I S B N 977-215-359-9

الناشـــــر : **دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع**
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطـابـع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤
التــوزيـــع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التـســويق والمعــرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، والداعين بدعوته إلى يوم الدين.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً * وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾

« صدق الله العظيم »

مقدّمة الكتاب

(١)

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه، فى كثير من سوره ، يقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ (١).

ويقول سبحانه :

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (٢).

ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (٣).

---

(١) الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) النساء : ٨٠.

(٣) آل عمران : ٣١.

ومن أجل هذه الصلة الإلهية برسول الله ، ﷺ ، أرشدنا الله - سبحانه وتعالى - إلى اتخاذ الرسول أسوة ، فقال سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾[1].

بل أمرنا سبحانه أن نأخذ ما آتانا ، وأن ننتهى عما نهانا عنه، وهددنا إذا لم نلتزم ذلك ، فقال سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[2].

أما السر فى ذلك فهو :

١ - أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : **لا ينطق عن الهوى ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم ، ولقد أقسم الله تعالى على ذلك فقال سبحانه :**

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[3].

٢ - كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى جميع أحواله حركة وسكونا، إشارة ونطقاً ، قلباً وقالباً، يمثل القرآن

---

(١) الأحزاب ٢١.

(٢) الحشر ٧.

(٣) النجم ١، ٢، ٣، ٤.

الكريم، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه تطبيقاً للقرآن، لقد لبس القرآن ظاهراً وباطناً، لقد كان قرآناً .

ولقد وصفته السيدة - عائشة - رضى الله عنها - وصفًا دقيقًا حينما سئلت عن خُلُقِهُ ، فقالت : « كان خُلُقهُ القرآن » .

ومن كان خلقه القرآن كان أسوة، وكان قدوة، وكان على خلق عظيم ، ومن هنا وصف الله سبحانه وتعالى له إذ يقول :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١).

(٢)

والحق ، أننا حينما نريد أن نكوِّن صورة واضحة تامة عن **رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه، فإن الطريق الوحيد لذلك : إنما هو الإحاطة بالقرآن إحاطة واضحة تامة، والإحاطة بالقرآن على هذا النسق ليست من السهولة بمكان، بل ليست بممكنة : فالقرآن فى كل يوم يتفتح عن معان جديدة للإنسانية ، ويتفتح عن معان جديدة للشخص المتأمل المتدبر: وهذه المعانى الجديدة : - إنسانية عامة ، أو فردية شخصية - إنما هى إيضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة .**

والعكس أيضاً صحيح ، فإن المتدبر المتأمل فى الصورة النبوية الكريمة عن طريق السيرة الصحيحة، والأحاديث المعتمدة ،

---

(١) القلم : ٤.

يفهم عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كل يوم جديداً، وهذا الفهم إنما هو تفسير وإيضاح لجوانب من القرآن الكريم.

لقد امتزج الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن - كما قدمنا - روحاً وقلباً وجسماً، وامتزج القرآن به عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً: فكان ، صلوات الله وسلامه عليه : قرآناً يسير فى الناس، وكان القرآن روحاً ينتقل ، وكان قلباً ينبض ، وكان لساناً ينطق بالهداية والإرشادة.

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه حريصاً كل الحرص على أن يكون خلق الأمة الإسلامية القرآن ؛ لقد عمل لذلك طيلة بعثه.

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول صلوات الله وسلامه عليه من الأمة فيقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) . صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يا رسول الله.

ويتحدث صلوات الله وسلامه عليه عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول :

---

(١) التوبة : ١٢٨.

« مثلى ومثلكم : كمثل رجل أوقد نارًا ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى ».

هذه هى صلة الرسول ﷺ بربه ، وهذه هى صلته بأمته .

لقد ارتفع صلوات الله وسلامه عليه إلى السماء بل وتجاوزها إلى سدرة المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى ، لقد ارتفع إلى الأفق الأعلى وتجاوز بذلك النهايات الكونية ، لقد كان فعلاً : أدنى من قاب قوسين فانغمس فى الأفق الأعلى وتلقى عن الله مباشرة كيفية الصلة به وهى الصلاة ، ثم ... ثم انبسط إلى الأرض سراجاً منيراً، رءوفاً رحيماً ، هادياً، يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه .

يقول أحد الصالحين : « صعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، إلى السماء ثم عاد إلى الأرض ، أقسم بالله ، لو صعدت إلى السماء لما حاولت العودة إلى الأرض مرة أخرى » .

بيد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه نبى ورسول فهو متصل بالله دائمًا: إنه فى السماء على الدوام ، وهو متصل بالبشر، يؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة . إنه كان على حد تعبير القرآن : « بشرًا رسولا » فهو ببشريته مع الناس ، وهو بسره مع الله : إنه مع الناس بإرادة الله وتوجيهه وأمره ، إنه مع الناس بكلمة الله ورسالته ، إنه مع الناس رسول من قبل الله .

وبهـذه المعـانى كلهـا يمكننا أن نقـول: إنه دائمًا مع الله ، ويمكننا أن نقول : إنه - منذ اللحظة الأولى للبعثة - لم ينزل إلى الأرض قط، وإنما كان دائمًا مع الله سبحانه وتعالى ، فهو صلوات الله وسلامه عليه يبيت عند ربه ، يقول ﷺ :

« لست كهيئتكم : أبيت عند ربى ... ».

(٣)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [١] .

إنه صلوات الله وسلامه عليه : « بشر » وما يجول فى خلد مسلم قط أن يخرجه عن البشرية ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه « بشر يوحى إليه » .

وما يتأتى قط أن يوحى الله إلى بشر إلا إذا أصبح وكأنه قطعة من النور : صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح .

فمنتهى القول فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

(٤)

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم ، فتمر عليه الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [٢] .

(١) الكهف : ١١٠.

(٢) الكهف : ١١٠.

يقف عند كلمة : (بشر) فيحاول التركيز عليها وتوجيه الانتباه كله إليها، وتحويل الأنظار كلها نحوها، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ، ويندفع فى هذا الاتجاه المنحرف اندفاعاً لا يتناسب قط مع قوله تعالى : « يوحى إلى » بل إنه فى اندفاعته الهوجاء ينسى « يوحى إلى » ويهملها إهمالاً.

إنه ليس بنادر فى العصر الحاضر أن يجرؤ بعض الناس فيتحدث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وعن خطئه- معاذ الله - فى الرأى، وعن إصابته فيه ، ويسير هذا البعض فى حديثه أو فى كتابته مستنتجاً ومستنبطاً وحاكما ، وينسى فى كل ذلك:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [1] ، وينسى فى كل ذلك :

« يوحى إلى » ، وينسى : « لست كهيئتكم » ، وينسى :
« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » .

وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لها حلول مختلفة، كلها صحيحة : بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم، وأن الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة الإسلامية أن رسوله صلوات الله وسلامه عليه - وهو على صواب دائماً - إنما يتخذ الحل الذى يتناسب مع ما حلاه الله به من الرأفة، وما فطره عليه سبحانه من الرحمة، وهو الحل الذى يتناسب مع طابع الرسالة الإسلامية العام:

---

(١) النجم ٣.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١).

والله سبحانه ببيانه ذلك فى هذه المواضع التى كان من الممكن أن يقف فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه مع العدالة الحاسمة، فعدل عن ذلك إلى الرأفة الرحيمة ... إن الله سبحانه وتعالى ببيانه ذلك ، إنما يمدح الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ويبين أن منزع الرحمة إنما هو الغالب عليه ، صلوات الله وسلامه عليه.

ولم يلغ الله سبحانه اتجاهاً عاماً سار فيه الرسول ، ولم ينقض قضية كلية أقرها، صلوات الله وسلامه عليه، ولم ينف مبدأ أثبته رسوله، فما كان صلوات الله وسلامه عليه يسير إلا على هدى من ربه ، وعلى بصيرة من أمره ، وقد شهد الله له بذلك حيث قال:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ ... ﴾ (٢).

وما فعل الله فى كل ما تمسك به المنحرفون، وتمحك فيه المتمحكون إلا بيان رحمة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، ورأفته : أى أنه سبحانه كان يبين فى هذه المواطن فضله صلوات الله وسلامه عليه، وأنه - كما وصفه سبحانه -: على خلق عظيم، والبون شاسع بين هذه الوجهة الربانية، وبين التحدث عن خطأ وصواب ، وأوضاع بشرية يركز عليها ولا يلتفت لسواها.

---

(١) الأنبياء ١٠٧.

(٢) الشورى ٥٢، ٥٣.

ولنضرب لذلك مثلاً : إن الذين ديدنهم الجدل يتحدثون كثيرًا عن قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم ﴾ [1] ويقذفون مباشرة بقولهم : إن العفو لا يكون إلا عن خطأ .

ولهؤلاء نقول : إن الأساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير، ومنها قولهم مثلاً : غفر الله لك ، لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ؟.

عفا الله عنك ، لم تعنِّى نفسك فى سبيل هؤلاء ؟ وكأن القائل يقول :

رضى الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الإرهاق ؟.

إن الآية القرآنية من هذا الوادى .

وضم هذه الآية الكريمة إلى أختها التى فى سورة النور : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [2] تجد المعنى واضحًا جليًا ، وهو أن الله سبحانه ، فوض الأمر لنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، فى أن يأذن لهم أو لا يأذن .

ليس النبى إذن معاتباً بهذه الآية - وحاشاه - بل كان ﷺ مخيراً، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا، ولتخلفوا بسبب نفاقهم ، وأنه مع ذلك لا حرج عليه فى الإذن لهم ،

(١) التوبة ٤٣.

(٢) النور ٦٢.

إنها آية مدح للرسول غاية فى الرقة ... ومن غير شك قد صدر الإذن لهم عن قلب رحيم ، وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يصدر فى أحكامه ، وما كان فى ذلك إلا متبعاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١).

وهكذا الأمر فى كل ما يمارى فيه الممارون .

(٥)

ومع ذلك فإننا نريد أن نزيد الأمر وضوحاً فى الفرق بين من يركز على «بشر» ومن يركز على «يوحى إلى» لأهميته الكبرى،

فنقص القصة التالية ، ذات المغزى العميق ، والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه فى شرحه لقصيدة ولى الله : (أبو مدين) رضى الله عنه ، يقول :

زار بعض السلاطين ضريح أبى يزيد رضى الله عنه - وقال: هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟.

فأشير إلى شيخ كبير فى السن كان حاضراً هناك .

فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبى يزيد ؟.

فقال : نعم سمعته قال : (من زارنى لا تحرقه النار).

---

(١) الأنبياء ١٠٧.

فاستغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبى ﷺ وتحرقه النار ؟.

فقال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبى ﷺ ، إنما رأى (يتيم أبى طالب) ، ولو رآه ﷺ لم تحرقه النار .

ففهم السلطان كلامه وأعجبه هذا الجواب منه ، أى أنه لم يره بالتعظيم والإكرام والأسوة، واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار ، لكنه رآه باحتقار ، واعتقاد أنه (يتيم أبى طالب) ، فلم تنفعه تلك الرؤية.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبى يزيد رضى الله عنه، وإنما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من أن أبا جهل لم ير النبى ﷺ وإنما رأى (يتيم أبى طالب).

هذه النظرة لأبى جهل هى التى نريد أن يتنزه المؤمنون عنها.

والمؤمنون - بحمد الله - لا يقعون فى هذا الإثم متعمدين، وإنما يتسلل هذا الإثم إلى بعض النفوس فى صورة لا شعورية ، عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول صلوات الله وسلامه عليه - وكأنه لا شىء فيه غير البشرية.

ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية ، ويركزون عليها يعتبرون أنفسهم متقدمين متطورين، وفاتهم أن هذه النظرة لأبى جهل إنما هى النظرة التى يتبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحاضر ، ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم.

وما كان المستشرقون فى تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين فى ذلك زعيمهم الأكبر- فى هذه النزعة - وهو أبو جهل. وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشرين فى هذه النزعة، أو يتابع أبا جهل ، وهم فى ذلك ليسوا تقدميين ولا متطورين ، وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرنًا مضت ، يتزعمهم فيها أبو جهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها !!.

ليس هناك إذن اجتهاد وخطأ وصواب، وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة فيتحدث الله مبينًا طبيعة رسوله الكريمة، وفطرته الرحيمة، ورأفته الواضحة، ويبين فى الوقت نفسه: أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها وليسوا أهلاً لها. لفساد فطرهم وسوء نواياهم.

من الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على: «بشر» أو على : « يوحى إلى » حسب قوة شعوره الدينى وضعفه، فالذى لا إيمان له لا يرى إلا البشرية ، ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية، ويخفف التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان ، ويزداد التركيز على : « يوحى إلى » كلما ازداد الإيمان ، حتى يصل الإنسان إلى ألا يرى أو لا يكاد يرى إلا « يوحى إلى » .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله.

وهناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس . طرف : «بشراً» أو ، « قل : إنما أنا بشر مثلكم ».

وطرف : « يوحى إلى » أو « رسولا »، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولاً وارتفاعاً ، انخفاضاً وسمواً.

وإن مقياس الإيمان قوة وضعفاً، مقياس درجة الإيمان الذى لا يخطئ، إنما هو ما وقر فى القلب أو غلب عليه ، من البشرية أو من : « يوحى إلى » إنهما يمثلان ما يوضع فى كفتى ميزان .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهمو

واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم.

(٦)

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذى لا يرى أو لا يكاد يرى، إلا : « يوحى إلى » ماذا يرى ؟ وكيف يرى ؟.

ما هى النظرة التى تنأى بنا عن : « يتيم أبى طالب » لتقربنا من « الأسوة » ؟ كيف ينبغى أن تكون نظرة المؤمن لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟.

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يلزم لها أن يصل الإنسان إلى مستواه صلوات الله وسلامه عليه أو إلى ما يقرب من مستواه وذلك لا يتأتى .

بيد أنه إذا استحال ذلك فإنه من الميسور أن نورد صورتين ، إحداهما : جاهلية ؛ والأخرى إسلامية . والصورتان لسيدنا عمر رضى الله عنه .

أما الصورة الأولى : فإنها « يتيم أبى طالب » كان سيدنا عمر، يراها قبل أن يهديه الله للإسلام ، وأراد سيدنا عمر أن يقتل « يتيم أبى طالب » حتى لا تتفرق كلمة القرشيين بسببه ، ولكن دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بعمرو بن هشام، أو بعمر بن الخطاب » كانت قد استجيبت لخير سيدنا عمر فهداه الله للإسلام ، ولازم الرسول صلوات الله وسلامه عليه فناله من بركاته ومن خيره ما هيأه لأن يكون الخليفة الثانى للأمة الإسلامية أجمع ، وأن يعز الله الإسلام به فى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وبعد وفاته.

إن سيدنا عمر هذا الذى لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، الذى كان إذا سلك طريقاً سلك الشيطان طريقاً آخر : خشية منه ورهبة ، والذى نزل القرآن أحياناً مصدقاً لما رآه ، إن سيدنا عمر صاحب : « يا سارية الجبل » يرسم لنا صورة إسلامية لسيده وحبيبه وصديقه ونبيه ورسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولكن هذه الصورة : هى صورة سيدنا عمر ، إنها تتناسب مع مستوى سيدنا عمر وهو من غير شك عظيم .

ماذا كان يمكن أن يقول سيدنا أبو بكر رضوان الله عليه؟ وماذا كان يمكن أن يقول سيدنا على رضى الله عنه ؟ وماذا كان يمكن أن يكون وصف سيدنا جبريل لو وصفه ؟.

إن الله سبحانه وتعالى يقول عنه صلوات الله وسلامه عليه :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١).

وما كانت كلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها : « كان خلقه القرآن » إلا تفسيراً لما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة ، أيمكنك أن تتصور المدى الذى تبلغه الآية الكريمة ، وتفسير السيدة عائشة لها ؟ أيتأتى لك أن تحيط بالقرآن ، أستغفر الله وأتوب إليه.

ولنعد إلى الصورة التى حاول رسمها صاحب : « يا سارية الجبل » ، لنعد إليها لنثبتها شارحين بعض حوادثها، موضحين لبعض أنبائها، وسنجعل الإيضاح بين أقواس .

بعد موت رسول الله ﷺ ، سمع سيدنا عمر يبكى ويقول :

(بأبى انت وأمى يا رسول الله ، لقد كان جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم ، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتها). يروى البخارى ومسلم، وكتب السنة كلها تقريباً وكتب السيرة (حادث حنين الجذع) بعدة روايات، وننقل هنا إحدى روايات البخارى :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (كان النبى ﷺ يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه).

بأبى انت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل :

---

(١) القلم ٤.

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (١).

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده، أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم ، فقال عز وجل :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ (٢).

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون:

﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ (٣) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار فماذا (فليس ذلك) بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله.

إن نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلوات الله وسلامه عليه، لم يحدث مرة واحدة وإنما حدث عدة مرات ، رواه البخارى ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وروته كتب السيرة بروايات عدة، فى ظروف مختلفة ، مما يدل على كثرة حدوثه ، وننقل هنا إحدى روايات الإمام البخارى :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : (عطش الناس يوم الحديبية ، والنبى ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس) فأسرعوا وتكاثروا (نحوه فقال : مالكم)؟.

---

(١) النساء ٨٠. (٢) الأحزاب ٧. (٣) الأحزاب ٦٦.

قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا من بين يديك. فوضع يده فى الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون فشربنا وتوضأنا.

قلت : (كم كنتم) ؟

قال : (لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة). **بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر ، فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح، صلى الله عليك : (سنتحدث فى فصل خاص عن الإسراء والمعراج).**

بأبى أنت وأمى يا رسول الله : لئن كان عيسى ابن مريم أعطاه الله، إحياء الموتى، فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية فقالت لك الذراع :

(لا تأكلنى فإنى مسمومة).

يروى ابن سعد فى طبقاته:

(أخبرنا سعيد بن محمد الثقفى ، عن محمد بن عمر ، عن أبى سلمة قال : (كان رسول الله ﷺ ، لا يأكل الصدقة ، ويأكل الهدية ، فأهدت إليه يهودية شاة مصلية ، فأكل رسول الله ﷺ منها هو وأصحابه ، فقالت : إنى مسمومة ، فقال لأصحابه : ارفعوا أيديكم ، فإنها قد أخبرت أنها مسمومة) قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل إليها الرسول ﷺ فقال :

(ما حملك على ما صنعت) فقالت : أردت أن أعلم إن كنت نبياً لم يضرك وإن كنت ملكا أرحت الناس منك، قال : فأمر بها فقتلت .. أ. هـ .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال:
﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (١).

ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا : فلقد وطئ ظهرك - تروى كتب السيرة أن عقبة بن أبى معيط وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة، حتى كادت عيناه تبرزان- وأدمى وجهك، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ».

(لقد دمى وجهه صلوات الله وسلامه عليه وكسرت رباعيته فى (غزوة أحد). روى ذلك البخارى ومسلم : أما حديث :

(اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) فقد رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد اتبعك فى قلة سنك، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً فى كثرة سنه ، وطول عمره ، ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل.

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لو لم تجالس إلا كفئاً لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفئاً لك ما نكحت إلينا، ولو لم تواكل

---

(١) نوح ٢٦.

إلا كفئاً لك ما واكلتنا ، فقد والله جالستنا، ونكحت إلينا، وواكلتنا ، ولبست الصوف ، وركبت الحمار ، وأردفت خلفك، ووضعت طعامك على الأرض تواضعاً منك صلى الله عليك وسلم .

هذه صورة :

ومن الطريف أن نذكر صورة أخرى استنتاجية ؛ استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ولكنه رجل واسع الأفق رحب الخيال دقيق التفكير.

وقد أخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أى مطعن، هذا الرجل هو : (هرقل) .

أتاه كتاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، يدعوه إلى الإسلام فلم يهمل الكتاب ولم يمزقه، وإنما قرأه فى عناية وانتباه، ثم أراد أن يكون صورة صحيحة عن صاحب الخطاب، فسأل عما إذا كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول فقيل له : إن بالمدينة تجاراً من مكة يعرفون محمداً باعتباره من مواطنيهم فأمر بإحضارهم وكان منهم أبو سفيان .

وسأل هرقل عن اقربهم نسباً إلى الرسول ، فكان أبا سفيان فقربه منه وأدناه وقال لهم : إنى سائله عن أمور فإن كذبنى فكذبوه .

يقول : أبو سفيان ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً لكذبت عليه .

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى : لأنها واضحة من النتائج التى انتهى إليها هرقل:

إن هرقل بعد أن انتهى من الأسئلة : بدأ - عن طريق الترجمان - يقول لأبى سفيان ، على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل ، ومن أصحاب أبى سفيان : سألتك عن نسبه :

فذكرت أنه فيكم ذو نسب.

فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟.

فذكرت : أن لا.

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسى بقول قيل قبله.

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟.

فذكرت أن لا.

قلت : لو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه؟.

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟.

فذكرت : أن لا .

فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه .

وهم : أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت : أنهم يزيدون .

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟.

فذكرت : أن لا .

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل يغدر ؟

فذكرت : أن لا .

وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك : بم يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة ، والصدق، والعفاف.

فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمى هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

هذه الصورة التى كونها هرقل بمنطقه ، ويمكن أن يكونها أو يكون مثيلات لها كل إنسان اتسع أفقه، ورحب تفكيره، وكل إنسان يصدق الله والحق : لابد أن ينتهى بما انتهى إليه هرقل من قوله : « لو كنت عنده لغسلت عن قدميه » وإنما يغسل عن قدميه، من أجل : «يوحى إلى». إذ إن من اصطفاه الله لرسالته جدير بأن يكون أهلاً لذلك .

بيد أن هذه النهاية التى انتهى إليها هرقل ، إنما هى الشعار الدائم الذى لا ينتهى بانتقال الرسول إلى الملأ الأعلى، فالرسول حى بيننا الآن برسالته وهديه وتعاليمه، والغسل عن قدميه الآن أو بتعبير آخر احترامه: إنما هو باتباع هديه ، والتزام رسالته ، وتقديره تقديراً يتناسب مع اصطفاء الله له ﷺ.

ولقد ركز هرقل نوعا ما على الصدق والإخلاص، والواقع أن صورة الصدق والاخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول ﷺ ولم تعمه عصبية ، أو حسد أو هوى .

على أن صورة الصدق والإخلاص: كانت سمة من السمات التى اتصف بها الرسول قبل بعثته ، وبعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه، لقد لازمته طيلة حياته، لقد كان مجرد الخبر يلقيه صلوات الله وسلامه عليه ، يأخذه أعدى أعدائه على أنه واقع لا محالة . فهذا أمية بن خلف - عدو لدود - يتلاحى مع سعد بن معاذ رضى الله عنه ، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة ، فيقول له سعد بن معاذ فى حدة المناقشة: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه (قاتلك) ، ويضطرب قلب أمية بن خلف ويسأل فى لهفة وضعف وتخاذل : أو قال ذلك حقًا ؟ فلما أكد له سعد بن معاذ الخبر أسقط فى يده وقال : لئن كان قال ذلك ، لقد صدق ، وقتل أمية بن خلف يوم بدر.

على أن هذه الصورة تتمثل فى وضوح بين حينما أعلن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه إلى قريش نبوته ، فقال لهم :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقونى ؟ ».

لقد كانت إجابتهم عن هذا السؤال تعبر عن الحقيقة التى لمسوها فيه لقد قالوا :

« نعم أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط ».

وصورة أخرى ، صورة لم يترتب لها ترتيب مروى ولم يؤد إليها منطق محكم ، صورة لم تكن نتيجة عشرة طويلة ، ورفقة قريبة، وإنما جاءت على البديهة، وأوحت بها الملاحظة السليمة.

إنها الصورة التى كونتها عنه صلوات الله وسلامه عليه أم معبد الخزاعية، وهى صورة لا تخص الجانب المعنوى منه وإنما تتصل على الأخص بالجانب الظاهر، وأردنا أن نثبتها هنا لنثبت بها (هيئة) وظاهراً بعد أن أثبتنا زوايا من المعنويات ، وجوانب من التقدير والإجلال، إن الصورة التى نثبتها الآن مجرد وصف ، إنها تعبير عن ملاحظة .

هاجر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من مكة إلى المدينة يرافقه أبو بكر رضى عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ودليلهم عبدالله بن أريقط.

مروا بخيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة قوية الأخلاق عفيفة تقابل الرجال ، فتتحدث إليهم وتستضيفهم : وسألها الركب عن تمر أو لحم يشترونه فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، فقد كانت سنة من السنين العجاف ، فقالت لهم :

والله لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى ركن الخيمة فقال :

(ما هذه الشاة يا أم معبد ؟) قالت :

هذه شاة خلفها التعب عن الغنم .

فقال صلوات الله وسلامه عليه : هل بها من لبن ؟ فقالت :

هى أجهد من ذلك .

قال : (أتاذنين أن أحلبها)؟.

قالت : نعم بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً .

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال :

(اللهم بارك لها فى شاتها)

فامتلأ ضرع الشاة ودرّ لبنها ، فدعا بإناء لها كبير، فحلب فيه حتى ملأه فسقى أم معبد فشربت حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب ﷺ آخرهم ، وقال :

(ساقى القوم آخرهم).

فشربوا جميعاً مرة بعد مرة .

ثم حلب فيه ثانية عوداً على بدء، فغادروه عندها، ثم ارتحلوا عنها، فما لبث أن جاء زوجها يسوق أعنزاً عجافاً هزلى فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال :

(من أين لكم هذا ولا حلوبة فى البيت) ؟.

قالت : لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت.

قال : والله إنى لأراه صاحب قريش الذى يُطلب ، صفيه لى يا أم معبد ؟.

قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، متبلج (مشرق) الوجه، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة (ضخامة البطن) ولم تزر به صعلة (لم يشنه صغر الرأس) وسيم قسيم، فى عينيه دعج، وفى أشفاره وطف (طويل شعر الأجفان) ، وفى صوته صحل (رخيم الصوت) أحور أكحل أزج أقرن شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطح (ارتفاع وطول) وفى لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، حلو المنطق فصل **لا نذر ولا هذر (لا عى فيه ولا ثرثرة فى كلامه) أجهر الناس وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة (وسط ما بين الطول والقصر) لا تشنؤه (تبغضه) من طول ولا تقتحمه عين (تحتقره) من قصر ، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة** منظراً ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا **لقوله ، وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، محفود (يسرع أصحابه فى** طاعته)، محشود (يحتشد الناس حوله) لا عابث ولا مفند (غير مخرف فى الكلام) .

قال أبو معبد : هذا والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته يا أم معبد لتلمست أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت لذلك سبيلا.

هذه الصورة التى حاولت أم معبد رسمها .

أما سيدنا عمرو بن العاص فإنه يقول فى صراحة وصدق - عندما حضرته الوفاة ، وعندما تذكر الماضى فخنقته العبرات، **وتحدث مع ابنه عن أشياء عدة فى صورة مؤثرة - : (ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت، أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت : لأنى لم أكن أملأ عينى منه).**

والآن نريد أن نتساءل : ما هى الصورة التى نريد أن نرسمها فى هذا الكتاب ؟.

ونريد، أن نقول : إن هذه الصورة التى نحاول رسمها ، ليست صورة مبتدعة ولا مخترعة، إنها صورة نحاول جاهدين أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح.

بيد اننا نعود فنقول : إننا لا نرسم صورة كاملة : فالصورة الكاملة لا يتأتى لمثلنا أن يرسمها ونحن هنا، إنما نحاول رسم جملة من الزوايا شاعرين بتقصيرنا ، معترفين بعجزنا ، ولكن أملنا كبير فى أن تكون هذه الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع وأن تكون على ما فيها من عجز وقصور ، ممثلة لبعض ما نكنه لسيد ولد آدم: من حب وإيمان، وأن تكون بذلك شفيعة لنا عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومع هذه الزوايا التى نحاول رسمها فإنه لا يعزب قط عن بالنا قول إمامنا البوصيرى رضى الله عنه عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذه الأبيات ، التى تعبر عن الحقيقة تعبيراً صادقاً :

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى

للقرب والبعد فيه غير منفحم

كالشمس تظهر للعينين من بعد

صــغـيــرة وتكل الطرف من أمم

وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته

قـــوم نيـــام تسلوا عنه بالحلم

فـمــبلغ العلم فــيــه أنه بشــر

وأنه خـــيـــــر خلق الله كلهم

* * *

النسب الشريف

لم تزل فى ضمائر الكون تختا ... رلك الأمـــهــات والآباء
أبان مـولده عن طيب عنصره ... يا طيب مبتدأ منه ومختتم

يقول صلوات الله وسلامه عليه، فيما رواه الإمام مسلم :

« إن الله ، اصطفى من ولد إبراهيم : إسـمـاعـيل واصطفى من ولد إسمـاعيل : بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة : قريشًا ، واصطفى من قريش : بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »

وهو صلوات الله وسلامه عليه : محمد بن عبدالله ، بن عبد المطلب بن هاشم، بن عبد مناف ، بن قصى :

ويصل نسبه إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام :

ولا نريد هنا ، أن نتحدث عن النسب الشريف من إبراهيم عليه السلام ، إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وإنما نريد أن نتحدث عن نسبه القريب ، بادئين من قصى :

قصى :

كان قصى عظيم الشرف ، كثير المال ، وكانت خزاعة فى عهده ، وبنو بكر : يتولون البيت الحرام وأمر مكة ، ورأى قصى : أن

قـريشـاً : إنما هـى الـوارث الشـرعى لإسـمـاعـيـل فـهـى فـرعـتـه [1] وصـــريح ولده، فـكلم رجـالاً من قـريش وبنى كنانـة ، ودعـاهـم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة وقال : نحن أولى بهذا منهم .

وأخذ قصى فى تدبير الأمر وإحكامه ، ولم تكن المسألة سهلة ميسرة، وكان لا مفر من الحرب فيها ، واقتتل الطرفان قتالاً شديداً وكانت الغلبة فى النهاية لقصى.

ولما فـرغ من نفى خـزاعـة وبنى بكر عن مكة، تجـمـعـت إليـه قريش- حسبما يروى ابن سعد فى « طبقاته الكبرى » - فسميت يومئذ قريشاً [2] لحال تجمعها ، والتقرش هو التجمع .

ومما يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :

« كـان قـصى بن كـلاب أول ولد كـعب بن لؤى، أصـاب ملكا أطاع له به قومه ، فكان شريف أهل مكة ، لا ينازع فيها فابتنى دار الندوة، وجعل بابها إلى البيت، ففيها يكون أمر قريش كله، وما أرادوا من : نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تدرع فما يشق درعها إلا فيها، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، ولا يعقدون لواء حرب لهم، ولا فى قوم غيرهم إلا فى دار

(١) سلالته.

(٢) قيل فى سبب التسمية بآراء غير ذلك.

الندوة : يعقده لهم قصى، ولا يعذر [١] لهم غلام إلا فى دار الندوة، ولا تخرج عير [٢] من قريش فيرحلون إلا منها ، ولا يقدمون إلا نزلوا فيها تشريفاً له، وتيمناً برأيه، ومعرفة بفضله، ويتبعون أمره **كالدين المتبع : لا يعمل بغيره فى حياته وبعد موته ، وكانت إليه الحجابة [٣] والسقاية [٤] والرفادة [٥] واللواء [٦] والندوة [٧] ، وحكم** مكة كله ، وكان يعشر [٨] من دخل مكة سوى أهلها .

قال : وإنما سميت : دار الندوة لأن قريشاً كانوا ينتدون فيها : أى يجتمعون للخير والشر. والندى مجمع القوم : إذا اجتمعوا [٩] .

وقسم قصى مكة أحياء ، وخصص كل قوم من قريش بحى ، وضاقت مكة بأهلها ، وكانت كثيرة الشجر فى الحرم، وكانت قريش تهاب قطع الشجر فى الحرم، فأمرهم قصى بقطعه ، وقال : إنما تقطعونه لمنازلكم ولخططكم : بهلة [١٠] الله على من أراد فساداً **وقطع هو بيده وأعوانه فقطعت - حينئذ - قريش ، وسمته « مجمعاً » لما جمع من أمرها وتيمنت به وبأمره.**

---

(١) لا يختن. (٢) قافلة.
(٣) سدانة البيت. (٤) سقيا الحجيج.
(٥) إطعام الحجيج. (٦) للحرب.
(٧) للمشورة . (٨) يأخذ منهم العشر.
(٩) انظر طبقات ابن سعد ص ٥٠.
(١٠) أى لعنته .

وقبل موته أعطى مناصب الشرف كلها - دار الندوة والحجابة والسقاية واللواء والرفادة - إلى أكبر أبنائه سناً، وهو : عبد الدار .

وكان من أبنائه : عبد مناف.

عبد مناف :

ومما يذكر بالنسبة لعبد مناف . أن رسول الله ﷺ اقتصر عليه حين أنزل الله تعالى عليه :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (١).

فإنه حينما نزلت هذه الآية الكريمة ، واجتمع إليه بنو عبد مناف تلبية لندائه قال لهم :

« إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وأنتم الأقربون من قريش ، وإني لا أملك لكم من الله حظًا، ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقونوا :

لا إله إلا الله ، فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم بها العرب، وتذل لكم بها العجم ».

---

(١) الشعراء ٢١٤.

هاشم :

وولد عبد مناف بن قصى ستة نفر، وست نسوة، كان من بينهم هاشم بن عبد مناف، واسمه عمرو، وهو الذى عقد الحلف لقريش من هرقل ، من أجل أن تختلف إلى الشام آمنة مطمئنة .

وهاشم هو صاحب إيلاف قريش ، وإيلاف قريش هو : دأبها وعادتها : ولقد كان هو أول من سن الرحلتين لقريش ، ترحل إحداهما فى الشتاء إلى اليمن، وإلى الحبشة: إلى النجاشى فيكرمه ويهديه الهدايا ، ورحلة الصيف إلى الشام وإلى غزة وربما بلغ أنقرة فيدخل على قيصر فيكرمه ويهديه الهدايا [1].

ثم أصابت قريشاً ، سنوات جدب عجاف، ذهبن بالأموال ، فخرج هاشم إلى الشام، فأمر بخبز كثير فخبز له فحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، فهشم ذلك الخبز، يعنى : كسره، وثرده، ونحر تلك الإبل ، ثم أمر الطهاة فطبخوا، وقدم الطعام لأهل مكة فأشبعهم ، وكان ذلك أول الحياة بعد السنة التى أصابتهم فسمى بذلك : هاشما.

وكان هاشم: رجلاً شريفًا طموحًا ذكيًا ، ولم يكن يرضيه قط أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف فى مكة- من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة - فحمل اللواء ضد بنى

---

(١) انظر طبقات ابن سعد.

عبدالدار، وتهيأ الفريقان وأحلافهم للتنازل، وعبئت كل قبيلة لقبيلة، ثم سعى الناس بينهم للصلح ، واصطلحوا يومئذ على أن يولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وكان رجلاً عريض الثراء ، وكان إذا حضر الحج قام فى قريش ، فقال :

يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل بيته، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته، فهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره.

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم [1] فتجعل فى موضع زمزم، ثم يستقى فيها الماء من البئار [2] التى بمكة ، فيشربه الحاج، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمنى وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن، والسويق والتمر، ويجعل لهم الماء ، فيسقون بمنى ، والماء يومئذ قليل ، فى حياض الأدم إلى أن يصدروا من منى فتقطع الضيافة ويتفرق الناس لبلادهم.

عبد المطلب :

وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر ، كان منهم شيبة الحمد وهو عبد المطلب . وتولى عبد المطلب بن هاشم الرفادة والسقاية ،

---

(١) حياض الأدم : هى حياض من جلد.

(٢) الآبار.

لم يزل ذلك بيده . يطعم الحاج ويسقيه فى حياض من أدم، إلى أن حفر زمزم ، فأصبح يسقى الحاج من زمزم، ويحمل الماء من زمزم إلى عرفة فيسقيهم به.

وكانت زمزم سقيا من الله.

لقد أتى عبد المطلب هاتف فى المنام مرات ، فأمره بحفرها ووصف له موضعها فقيل له :

(احفر طيبة) .

فقال : وما طيبة؟.

فلما كان الغد أتاه ، فقال : (احفر برة).

قال : وما برة ؟.

فلما كان الغد أتاه ، وهو نائم فى مضجعه ذلك فقال : (احفر المضنونة) .

قال : وما المضنونة ؟.

اين لى ما تقول ؟.

فلما كان الغد أتاه ، فقال : (احفر زمزم).

قال : وما زمزم ؟.

قال : (لا تنزح ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم).

فلما عيَّن موضعها غدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل إلى الماء فكانت زمزم .

وكان عبد المطلب من حكماء العرب ، ومن حكماء قريش ، وتؤثر عنه سنن، جاء القرآن بأكثرها كالمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق ، والنهى من قتل الموءودة [1].

ويصف المؤرخون عبد المطلب ، فيقولون :

« كان أحسن قريش وجها ، وأمده جسما ، وأحلمه حلماً، **وأجوده كفًا، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال ، لم يره ملك قط إلا أكرمه وشفعه وكان سيد قريش حتى مات »** [2].

عبد الله :

أما عبدالله ، والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كان صورة طبق الأصل من جده، ولو أمهله الزمن لتولى مناصب الشرف التى كانت بيد عبد المطلب ، وكان شعاره الذى التزمه طيلة حياته ما عبر عنه هو بقوله :

« أما الحرام فالممات دونه ».

وتقول له فاطمة الخثعمية : « إنى لأعرف فيك نسك أبيك ».

---

(١) التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق.

(٢) انظر طبقات ابن سعد.

وإذا نظرنا إذن إلى رسول الله ﷺ من ناحية والده وأسلافه؛ ومن ناحيـة والدته وأخواله، فإننا نجدهم - خلقاً وعـراقة أصل - من أشرف بيوت مكة وأكرمها ، وأسماها بشهادة المؤرخين جميعاً ، فكان صلوات الله وسلامه عليه - كما يقول ابن هشام :

« أوسط قومه نسباً ، وأعظمهم شرفاً من قبل ابيه وأمه ».

مولده :

لما حملت به أمه آمنة بنت وهب كانت تقول :

« ما شـعـرت أنى حـملت به ولا وجـدت له ثقلة، كمـا تجـد النسـاء ، إلا أنى قـد أنكرت رفـع حيـضـتى ، وربما كـانت ترفـعنى وتعود، وأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان فقال :

« هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى.

فقال : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين.

قالت : فكان ذلك مما أيقن عندى الحمل، ثم أمهلنى حتى إذا دنت ولادتى أتانى ذلك الآتى فقال :

قولى : « أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد » .

قالت : فكنت أقول ذلك ، فذكرت ذلك لنسائى فقلن لى : تعاقين حديداً فى عضديك وفى عنقك ؛ قالت : ففعلت.

قالت : فلم يكن ترك على إلا أياما فأجده قد قطع فكنت لا أتعلقه .

ويقول أبو جعفر محمد بن على : « أمرت آمنة وهى حامل برسول الله ﷺ أن تسميه :

« أحمد ».

ورأت أمه حين ولدته كأن نوراً سطع منها أضاءت له قصور الشام.

وولدته صلوات الله وسلامه عليه ، فأرخ ميلاده ابتداء التمهيد، لما أرادته الحكمة الإلهية: من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور .

كان ميلاده تمهيدًا لذلك ، بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى فى الفترة التى سبقت الرسالة أحاط رسول الإسلام بعنايته ورعايته ليكون أهلا لأن يحمل أعظم رسالة، ولأن يبشر بالدين ، ولأن يبين للإنسانية أجمع المعنى الصحيح فيما يتعلق بأمر ما بينها وبين الله .

فيما يتعلق بأمر سلوك كل شخص بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة للآخرين ، وليحدد مسئولية كل شخص فى المجتمع حاكما كان أو محكوما ، زوجا كان أو ابنا أو أخا أو رئيسا فى العمل ، أو غير ذلك مما يشتمل على بعضه الحديث الشريف :

« كلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راعٍ ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع ومسئول عن رعيته ».

وليلة ميلاده صلوات الله وسلامه عليه بدأت تتزلزل جميع أسس الكفر ، وترمز إلى ذلك جميع كتب السيرة النبوية رموزا واضحة .

يوم ميلاده ﷺ ، غاضت بحيرة ساوة ، وتشقق إيوان كسرى، وخبت نار الفرس .

أما الأصنام التى كانت على ظهر الكعبة ، فإن مصيرها المحتوم وتحطيمها المؤكد قد تحدد موعده بالسنين والأيام .

إن عمد الشرك هذه والضلال والانحراف والظلم والاستعباد، بدأت تتهاوى وتنهار ، منذ ميلاد الرسول ﷺ ، وأصبح أمر النور والهداية والرشاد وشيك الظهور والانتشار .

وسمى المولود « محمدا ».

أما سبب هذه التسمية فإنه حينما جاء جده عبد المطلب ليراه ، قيل له :

« ما سميت ابنك » ؟

فقال : « محمدا »

فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟

فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

وذلك لما يروى السهيلى لرؤيا كان قد رآها عبد المطلب ، وقد ذكر حديثها على القيروانى فى كتاب « البستان » .

قال : « كان عبد المطلب قد رأى فى نومه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض ، وطرف فى الشرق وطرف فى الغرب ، ثم عادت وكأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها (فقصها) فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض » .

فلذلك سماه : محمدًا ، وسمته أمه من قبل : أحمد فهو أحمد وهو محمد ﷺ .

ولقد تحدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيما بعد عن أسمائه فقال فيما رواه الإمام أحمد :

« إن لى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحى به الكفر، وأنا العاقب».

وقال فيما رواه الإمام أحمد أيضاً.

« أنا محمد ، وأنا أحمد ، ونبى الرحمة ونبى التوبة والحاشر والمقفى ونبى الملاحم ».

وكـان من عـادة العـرب أن يرضـعـوا أبناءهم خـارج مكة، فيرضعوهم في الصحراء المنطلقة مكاناً وجوًا ليشبوا في صحة تامـة ، جسمًا وعـقـلاً ، ومن أمـثـالهم ، « العـقل السليم فى الجسم السليم » .

وجاءت المرضعات يلتمسن الرضعاء فى مكة، وهنا نترك السيدة حليمة السعدية تتحدث عن الرحلة وعما صادفت فيها ذهاباً وإيابا، وعما رأته من بركات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، لقد كات تقول :

« إنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء ، قالت : وهى فى سنة شهباء لم تبق لها شيئاً » .

قالت : فخرجت على أتان لى قمراء معنا شارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع وما فى ثديى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغذيه، وكلنا كنا نرجو الغيث والفرج .

فخرجت على أتانى تلك فلقد أذمت (١) بالركب حتى شق عليهم ضعفا وعجفا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله: محمد ﷺ فتأباه إذا قيل لها

---

(١) جاءت بما تذم عليه.

(إنه يتيم)، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول : يتيم؟ وما عسى أن تصنع أمه وجده؟ فكنا نتركه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت إلا أخذت رضيعًا غيرى .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من صواحبى ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه.

قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة.

قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك.

وقام زوجى إلى شارفنا تلك ، فإذا بها حافل ، فحلب منها وشرب وشربت معه، حتى انتهينا ريا وشبعاً فبتنا بخير ليلة.

قالت : يقول صاحبى حين أصبحنا ، تعلمين والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة.

فقلت : والله لأرجو ذلك .

قالت : ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم، حتى أن صواحبى ليقلن لى :

يا ابنة أبى ذؤيب ويحك . أربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟.

فأقول لهن : بل والله إنهاه لهى هى.

فيقلن ، والله إن لها لشأنا .

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد : وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت أغنامنا تروح على حين قدمنا به معنا شباعا لبنا فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم، ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذويب. فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعًا لبنا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته.

وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً ولكنه صلوات الله وسلامه عليه لم يمكث عندها عامين فقط: ذلك أنها على رأس العامين ذهبت به إلى مكة لتراه أمه **وليراه جده ثم عادت به أشد ما تكون حرصاً عليه وعلى العودة به.**

أخذت حليمة السعدية رسول المستقبل إلى بادية بنى سعد مرة أخرى، وليس هناك من غرابة فى أن يكون رسول النور هذا قد ملأ رحلتها من مكة إلى البادية بالبهجة والنشاط، وبالأمل والتفاؤل.

إن الأبحاث الحديثة نفسها ، وتجارب الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية: تؤيد أن هناك إشعاعات عند بعض الناس تضفى على المرافقين لهم بهجة ونشاطا؛ فلا غرابة إذن أن تنشط حليمة وينشط زوجها وتنشط دوابهما وأن تسير الرحلة فى رخاء وأن يكون محمد فى براءته وطهارته وفى طفولته الباسمة ونضرته المتألقة: هو سبب ذلك كله.

ويملأ محمد بيت حليمة بهجة وسروراً ، ويدب النشاط فى جميع أرجاء البيت وعند جميع سكانه. ويبارك الله فى كل شىء فيه. وتنعم هذه الأسرة بحياة هنيئة ، فيزيد عطفها على محمد ويزيد حنانها عليه، فينمو فى جو من الرحمة والود والحنان: وينغرس كل ذلك فى نفسه ، ويمتلئ قلبه الناشئ ببذور أسمى العواطف والشيم.

ويتحقق منذ طفولته - بل وإلى أن تنتهى به الحياة - ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه لما توفى عبد الله قالت الملائكة :

« إلهنا وسيدنا بقى نبيك يتيما ».

فقال الله تعالى : « أنا له حافظ ونصير ».

نَبىّ التّوبَة صلى الله عليه وسلم

عن حذيفة رضى الله عنه قال: فيما رواه الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال عن نفسه :

« إنه نبى التوبة ».

وللتوبة عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفى الجو الإسلامى على وجه العموم شأن كبير ، ذلك أن التوبة إنما هى تصفية للنفس، وتزكية للروح ، ونتيجتها الإخلاص.

وأهمية الإخلاص إذا نظرنا إلى الفرد، أو نظرنا إلى المجتمع، لا تخفى على أحد.

وإذا نظرنا إلى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، من زاوية التوبة والإخلاص ، وصفاء النفس ، وتزكية الروح : فإن أول ما يفجؤنا من ذلك إنما هو هذا الحادث الذى ترويه كتب السيرة تحت عنوان : « شق الصدر ».

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه منذ الطفولة المبكرة .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته ، وبينما هو يلعب مع الغلمان - على ما يروى الإمام مسلم - أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه، فاستخرج منه علقة فقال :

« هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه ».

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى مرضعته - : أن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً .

فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر ، فقد روى الإمام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن أبى بن كعب : أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال :

« يا رسول الله ، ما أول ما رأيت فى أمر النبوة » ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسًا وقال :

« لقد سألت أبا هريرة » .

« إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : « أهو هو » ؟.

قال : نعم .

فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط ، فاقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا.

فقال أحدهما لصاحبه : اضجعه فأضجعانى بلا قسر [1] ولا هصر [2].

وقال أحدهما لصاحبه :

« افلق صدره ».

فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع، فقال له :

أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئًا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : اغد واسلم.

« فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير ».

فلما جاوز صلوات الله وسلامه عليه الخمسين أتاه آت بينما كان فى الحطيم أو فى الحجر مضطجعاً بين النائم واليقظان، أتاه فشق عن صدره- حسبما يروى البخارى ومسلم - واستخرج قلبه ا.

(١) القسر : الإجبار.

(٢) الهصر : ثنى العموم من رأسه ، والمعنى : لم يثنيا ظهرى ولم يكرهانى.

« ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً، فـغـسل قلبى ثم حشى ثم أعيد».

وتكرر المعراج فتكرر شق الصدر . فعن أبى بن كعب - فيما رواه الإمام أحمد والإمام مسلم - أن رسول الله ﷺ قال :

« فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه ».

ولا يعنينا هنا لا فى قليل ولا فى كثير ، أن نجارى الماديين فى جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر :

فالأمر أسمى بكثير من المماراة فى الشكل ، الكيف ، والزمان، والمكان .

والمغزى : أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التى تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين .

لقد روت كتب السنة بالأسانيد الصحيحة، وروت كتب السيرة هذه الحادثة التى توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله منذ طفولته المبكرة ، وإن من مظاهر هذه العناية : أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل .

إن الله سبحانه وتعالى - وقد شاءت إرادته ، منذ الأزل، أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين - أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل.

والإنسان يبدأ السير نحو الكمال : بطهارة القلب ، وتصفية النفس ، والتوبة ، والإخلاص - أو بتعبير آخر - بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه ، وأرسل الله ملائكته ، فشقوا عن صدر الرسول ، واستخرجوا حظ الشيطان منه .

وأرسلهم فشقوا عن صدره وملأوه سكينة .

ثم أرسلهم ، فشقوا عن صدره ، وملأوه رأفة ورحمة.

فكان صلوات الله وسلامه عليه : رأفة على الصغير، ورحمة للكبير .

ثم أرسلهم فشقوا عن صدره ، فملأوه إيماناً.

ثم شقوا عنه فملأوه حكمة .

وإذا كان رسول الله ﷺ هو المثل الكامل للإنسان الكامل، فإن لنا فيه أسوتنا ، والأسوة فى شق الصدر إنما هى : التوبة .

وتوبتنا إلى الله إذن توبة نصوحا: إنما هى بمثابة شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه .

والتوبة النصوح : تخرجنا مباشرة عن جو الخطائين ، بل

وعن جو الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا، هؤلاء الذين يقول الله فيهم : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (١).

إن الله يعبر فى شأنهم بكلمة (عسى) والتوبة النصوح تخرجنا من جو (عسى) لتضعنا فى جو : « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ».

والتوبة النصوح ، التوبة الصادقة من الآثام والمعاصى: حد فاصل ، وفيصل حاسم بين عهدين : عهد سيطرة الشيطان ، سيطرة كلية أو سيطرة جزئية ، سيطرة دائمة أو سيطرة مؤقتة، وعهد الانضواء تحت لواء عباد الرحمن الذين يقول الله فى حقهم مخاطبًا الشيطان :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٢).

وبمجرد أن ينزع الإنسان سلطان الشيطان فى صورة من العزم المصمم وينضوى تحت لواء الله فى صورة من اليقين المطمئن، فإن الله سبحانه وتعالى ، يتولاه ويتكفل به .

بل إن رعاية الله سبحانه وتعالى : تبدأ مع الإنسان منذ أن يبدأ فى الاتجاه إليه سبحانه وتعالى مباشرة ، وبدء الإنسان فى

---

(١) التوبة ١٠٢.

(٢) الإسراء ٦٥.

الاتجاه إلى الله، إنما يكون بالاستغفار، فإذا بدأ الإنسان بالاستغفار بدأت رعاية الله له، يقول الله تعالى :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾[1].

وكلما ازداد الإنسان اتجاهاً إلى الله، وإقبالاً عليه ، وتقرباً منه وحبا فيه : ازدادت رعاية الله له :

« ومن تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة ».

إن حياة النفوس والعمل الصالح ، أهم عنصر لسعادة الإنسان فى حياته الدنيا وسعادته فى الحياة الآخرة، والله سبحانه **وتعالى يبين ذلك فى أكثر من آية فى القرآن الكريم :**

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[3].

---

(١) نوح ١٠، ١١، ١٢.

(٢) النحل ٩٧.

(٣) الأعراف ٩٦.

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (1).

التقوى والعمل الصالح نتيجتهما : السعادة وعناية الله ورعايته، واللبنة الأولى فى أساس كل ذلك : إنما هى : التوبة ، أو هى : شق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه . وقد فتح الله بابها على مصراعيه، إنه سبحانه وتعالى - فيما رواه الإمام مسلم - : « يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ».

ويقول سبحانه :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ (2).

وتوبة العوام إنما هى من الذنوب والآثام ، أما الخواص ، فإنهم لا يتوبون من الآثام والمعاصى ؛ فذلك ميدان قد تطهروا منه ، ونزههم الله برحمته عن أن يقعوا فيه . ومع ذلك فإنهم يتوبون إلى الله ويستغفرونه مصبحين ؛ ويستغفرونه سبحانه ويتوبون إليه

---

(1) الطلاق : ٢، ٣.

(2) الزمر ٥٣، ٥٤.

ممسين، بل يستغفرونه ويتوبون إليه تعالى فى كل وقت وحين : خضوعاً له وخشية منه، وتقرباً إليه ، وخوفاً من الكبر الخفي، أو الغرور المستتر. أو الغفلة التى قد لا يشعر بها الإنسان .

لقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى ترقيه الدائم، وفى أنواره التى تزداد كل لحظة ضياء : يستغفر الله ، ويتوب إليه استغفار عبادة وتوبة إنابة وقربى . يقول صلوات الله وسلامه عليه – فيما رواه الإمام البخارى .

« والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » . ويقول صلوات الله وسلامه عليه – فيما رواه الإمام مسلم-:

« يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة ».

بيد أن ما نريد أن نؤكده لطلاب المعرفة الصحيحة – عن عالم الغيب – ونؤكده لطلاب الإيمان المطمئن : هو أن وسيلة ذلك إنما هى : التوبة النصوح ، إنها تستخرج حظ الشيطان ثم تأتى بالسكينة ، والتوبة النصوح : سبب مباشر – بتوفيق الله – لملء القلب إيماناً ، بعد أن امتلأ رأفة ورحمة ، ثم إنها السبيل لتنزل الحكمة – وهى المعرفة اللدنية – أرسالاً ، فيفيض بها القلب هداية وإرشاداً: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (١).

(١) البقرة ٢٨٢.

وإن من التزم العبودية - واللبنة الأولى فيها إنما هى التوبة-: فإن الله سبحانه يأتيه برحمة من عنده ، ويعلمه من لدنه علماً .

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى سن مبكرة ، فكان صلوات الله وسلامه عليه - كما تقول السيدة آمنة :

« والله ما للشيطان عليه من سبيل ».

وحقيقة أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل ، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها .

لقد كانت مكة - حينما كان رسول الله ﷺ شابًا فتيًا قويًا تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة :

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها، وكذلك البيوت المريبة، وفى هذه وتلك المغنيات ، والراقصات ، والماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه، وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك .

ذكر البخارى عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال :

ما هممت بشىء من أمر الجاهلية إلا مرتين ».

أما هاتان المرتان : فإن سيدنا عليًا رضى الله عنه : يتحدث عنهما - على ما يروى ابن كثير - فيقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« مـا همـمت بشىء مما كـان أهل الجـاهليـة يهـمـون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمنى الله عز وجل فيهما : قلت ليلة لبعض فتيان مكة - ونحن فى رعاء غنم أهلها - فقلت لصاحبى :

« ألا تبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان »؟.

فقال : بلى .

قال : فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟.

قالوا : تزوج فلان فلانة.

فجلست أنظر ، وضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس.

فرجعت إلى صاحبى فقال : ماذا فعلت ؟.

فقلت : ما فعلت شيئاً ، ثم أخبرته بالذى رأيت.

ثم قلت له ليلة أخرى : أبصر لى غنمى حتى أسمر ، ففعل فدخلت فلما جئت مكة ، سمعت مثل الذى سمعته تلك الليلة فسألت :

فقيل : نكح فلان فلانة .

فجلست أنظر ، فضرب الله على أذنى ، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس.

فرجعت إلى صاحبى فقال : ما فعلت ؟ فقلت :

لا شئ. ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشئ من ذلك ، حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته :

هذا ما كان من أمر عبث الفتيان .

أما ما كان من أمر عباد الأصنام ، فإن القصة التالية توضح الأمر :

عن ابن عباس ، قال : حدثتنى أم أيمن ، قالت : كانت بوانة صنماً تحضره قريش تعظمه : تنسك له النسائك ، ويحلقون رءوسهم عنده، ويعكفون عنده يومًا إلى الليل وذلك يومًا فى السنة.

وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فيأبى رسول الله ﷺ ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن :

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً.

قالت : فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب عنهم ما شاء الله ، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً فقالت له عماته : ما دهاك ؟ قال :

« إنى أخشى أن يكون بى لمم »[1].

---

(١) مس من الجنون.

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذى رأيت ؟.

قال :

« إنى كلما دنوت من صنم منها : تمثل لى رجل أبيض يصيح بى : وراءك [1] يا محمد : لا تمسه » . قالت :

« فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ » .

لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه شرحًا مستفيضًا وتوضيحًا كاملاً ، وتعبيرًا تامًا لما ذكره ابن خلدون وما يتفق عليه العقلاء ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة : من أن ذلك من علامات الأنبياء :

« إنه يوجد لهم قبل الوحى ، خلق الخير والزكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع ، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، مبينة لهذه القاعدة فيقول :

« وفى الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها فى إزاره فانكشف ، فسقط مغشيًا عليه حتى استتر بإزاره .

---

(١) ارجع وراءك.

ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب ، فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئًا من شأنهم » :

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ وهو طاهر زكى : طاهر من الآثام التى تدنس الشباب فى مجتمعاتهم ، وزكى لأنه بعيد عن الشرك لم يسجد لصنم قط، صلوات الله عليه وسلامه .

* * *

الوحـــى

ما قبل الوحى :

إن كتب السيرة : لا تحدثنا عن حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه قبل بعثته . إلا بالنزر القليل - القليل جدًا - ويمكن تلخيص ذلك فى صورة مجملة - كما يلى :

بعد أن استكمل الرسول الرضاع ، وبلغ حوالى الأربع سنوات: عادت به حليمة رضى الله عنها ، إلى أمه : آمنة بنت وهب . فلما بلغ ست سنين خرجت به إلى أخواله : بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم به ومعه أم أيمن تحضنه ، وهم على بعيرين ، فنزلت به فى دار النابغة ، فأقامت به عندهم شهراً.

ثم رجعت به إلى مكة : فلما كانت بالأبواء توفيت ودفنت هناك، ولم ينس الرسول صلوات الله وسلامه عليه المكان الذى دفنت **فيه أمه . فلما مر فى عمرة الحديبية بالأبواء قال : « إن الله قد أذن لى فى زيارة قبر أمى ». ثم أتاه فأصلحه وبكى عنده وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ ، فقيل له ذلك ، فقال : أدركتنى** رحمتها فبكيت .

ورجعت به أن أيمن : على البعيرين اللذين كانا معهما .

واستمرت أم أيمن تحضنه بعد وفاة أمه ، وعندما وصل مكة قبضه إليه جده عبد المطلب، وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه إذا خلا، وإذا نام ، وكان الرسول يجلس على فراش جده، فيريدون منعه، فيقول عبد المطلب حينما يرى ذلك : «دعوا ابنى إنه ليؤنس ملكا ».

ورآه مرة عبد المطلب بعيداً عن رعاية أم أيمن ، فقال لها : «يابركة لا تغفلى عن ابنى ، فإنى وجدته مع غلمان قريباً من السدرة وإن أهل الكتاب : يزعمون ، أن ابنى هذا نبى هذه الأمة ».

ولما توفى عبد المطلب ، قبض أبو طالب رسول الله ﷺ فكان يكون معه، وكان أبو طالب لا مال له ، وكان يحبه حبًا شديدًا لا يحبه ولده، وكان لا ينام إلا فى جنبه، ويخرج فيخرج معه وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشىء قط، وكان يخصه بالطعام، وكان إذا أكل عيال أبى طالب ، جميعاً أو فرادى لم يشبعوا وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا، فكان إذا أراد أن يغذيهم قال : كما أنتم حتى يحضر ابنى، فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم، فكان يفضل من طعامهم، وإن لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب: « إنك لمبارك » .

واستمر أبو طالب فى رعاية الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يسلمه قط، ولم يخذله ، إلى أن توفى للنصف من شوال فى

السنة العاشرة من حين نبئ رسول الله ﷺ وهو يومئذ : ابن بضع وثمانين سنة .

ومما يروى بصدد أبى طالب : أن العباس قال : « يا رسول الله أترجو لأبى طالب ! فقال صلوات الله وسلامه عليه : « كل الخير أرجو من ربى ».

وفى هذه الفترة التى قبل البعثة : كان يتحاكم إلى الرسول.

يقول الربيع بن خثيم : « كان يتحاكم إلى رسول الله فى الجاهلية قبل الإسلام ، ثم اختص فى الإسلام ».

ومن الأمثلة المشهورة فى ذلك : قضاؤه ﷺ فى الخلاف الذى كان بين قريش بشأن وضع الحجر الأسود ، فإنه حينما انتهوا فى بناء الكعبة إلى حيث يوضع الركن من البيت ، قالت كل قبيلة : نحن أحق بوضعه، واختلفوا حتى خافوا القتال ، ثم جعلوا بينهم أول من يدخل من باب بنى شيبة . فيكون هو الذى يقضى بينهم، وقالوا : رضينا وسلمنا بذلك ، فكان رسول الله ﷺ أول من دخل من باب بنى شيبة، فلما رأوه قالوا: هذا هو الأمين، قد رضينا بما قضى بيننا ؛ ثم أخبروه الخبر ؛ فوضع رسول الله ﷺ رداءه. وبسطه فى الأرض ثم وضع الركن فيه ثم قال : ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل فكان فى ربع بنى عبد مناف : عتبة بن ربيعة . وكان فى الربع الثانى ، أبو زمعة ، وكان فى الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة . وكان فى الربع الرابع ، قيس بن عدى . ثم قال رسول الله

ﷺ : ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعاً فرفعوه ، ثم وضعه رسول الله ﷺ بيده فى موضعه ذلك .

وفى سن الخامسة والعشرين ، تم زواجه صلوات الله وسلامه عليه ، وهنا نترك مجال الكلام لنفيسة بنت منبه تقص علينا النبأ بصورته الواقعية ، قالت :

« كانت خديجة بنت خويلد : امرأة حازمة شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ ، أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً : وكل قومها : كان حريصاً على الزواج منها ، لو قدر على ذلك ، ولقد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال فأرسلتنى دسيساً إلى محمد ؛ بعد أن رجع فى عيرها من الشام فقلت :

يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟ «فقال : ما بيدى ما أتزوج به»
قلت : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال ، والمال ، والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : « فمن هى ؟ » قلت : خديجة ، قال : «وكيف لى بذلك » » قالت : قلت : على ، قال : « فأنا أفعل » ، فذهبت ، فأخبرتها فأرسلت إليه : أن ائت الساعة كذا وكذا وأرسلت إلى عمها فحضر وتزوجها رسول الله ﷺ ، وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ : بنت أربعين سنة ، ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة .

وفى ظل الحياة الزوجية : عاش صلوات الله وسلامه عليه ،

عيشة هادئة وديعة ، فيسر الله له بذلك ، ما كان يشغل به نفسه : من العبادة والتقوى، وهكذا نشأ ﷺ ، طاهر النفس كريم الخلق، مجانباً للمذمومات ، مجانباً للرجس.

لقد سارت به الحياة نقية طاهرة : فكانت شرحاً وتفسيراً لما سبق أن تحدثنا عنه : من شق صدره الشريف ، واستخراج حظ الشيطان منه .

ولقد تمثل فيه فى طور الشباب : النضج الكامل والرجولة الرشيدة .

لقد كان صادقاً فى حديثه، عطوفاً على من حوله ، معيناً للضعفاء يكتسب ثقة كل من يخالطه.

ولكل ذلك أحبته السيدة خديجة رضوان الله عليها.

ولكنها رضى الله عنها : أحبته لشىء آخر هو : السمو الروحى، وهو العزوف عن اللذائذ المادية الفانية ، والاتجاه إلى الخالد من معالى الأمور .

إن عناية الله : رافقته ، ولاحظته ووجهته فكان خيِّرًا زكيًا وكان أمة وحده وسط هذا الضلال الدينى والأخلاقى الذى كان يملأ على رجال مكة جميع أقطارهم.

لقد أحبته السيدة خديجة من أجل ذلك .

ومن أجل ذلك سماه قومه (الأمين).

لقد كان أميناً على نفسه : فلم يسلمها إلى مهاوى الشرك أو الشهوة أو الرجس . وكان أميناً على الناس : فلم ينتهك عرضا ، ولم يوقع بعض الناس بالنميمة ، ولم يغتب.

وكان أميناً على الحديث إذا تحدث : فلا كذب ولا مغالاة.

وكان أميناً على الأسرار : فلم يفشها ، ولم يذعها.

إنه : (الأمين) .. أجمع عليها القرشيون ، وقالوها حينما اختلفوا فى رفع الحجر الأسود ، ووضعه فى الكعبة ، وأوشكت الحرب أن تقع بينهم - كما قدمنا - ثم استقر رأيهم على الاحتكام لأول داخل عليهم ، فغمرتهم الفرحة، حينما رأوا محمدا وصاحوا إنه (الأمين) رضينا ، إنه محمد.

الوحى : ولقد حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه ، أى : (يتعبد) الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها.

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يغادر مكة منغمسة فى الضلال ليعتكف فى غار حراء متعبداً حتى قالت العرب : « إن محمدا قد عشق ربه »..

ولكن أما آن لهذا الضلال الذى يخيم على مكة أن ينقشع..؟

أما آن لهذه الظلمة أن تتجلى ؟.

أما آن لهذه الأصنام أن تتحطم !.

أليس هناك أمل فى قبس من نور . أو أثارة من علم، أو رحمة من عند الله ، أو هداية من لدن مانح الهدى والرشاد !؟.

ويلجأ رسول الله ﷺ إلى الله، يستغيث به ، ويستعيذه، ويرجوه ، ويلح فى الرجاء ، ويتذلل ، ويطلب منه الرحمة له ولقومه.

وتمضى الأيام وهو فى كفاح المستميت ، وجهاد المستبسل، يتجه إلى الله فى الصباح ، ويتجه إليه فى الظهر، ويتجه إليه فى الآصال ، ويتجه إليه فى مغيب الشمس ، ويتجه إليه حينما تلمع الكواكب.

إنه مهاجر إلى الله فى كل لحظة ، وفى كل نفس من أنفاسه، وفى كل طرفة عين ، وفى كل نبضة قلب ، وفى كل همسة من همسات الضمير .

إن حياته كلها لله، ومع ذلك فإن الأيام : تمر ، والسنين تمضى ولا يزال الظلام مخيماً فوق أرجاء مكة، ولا تزال الأصنام فوق بيت الله : شارة الضلال وعلم الانحراف .

ويضاعف الرسول ﷺ خضوعه وتذلله ، ويضاعف رجاءه وأمله، ويجاوز الأمل والخوف والقلق ، فيضاعف التذلل والخضوع، والالتجاء إلى الله حتى أصبح صلوات الله وسلامه عليه فى النهاية، وكأنه صفاء من الصفاء ، ونور من النور .. فلما استوت على الجودى، ولما كاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ... وفى ليلة من

الليالى . بينما كان الرسول ﷺ معتكفاً فى غار حراء كعادته كل عام. وفى شهر رمضان المبارك ... تحطم نهائياً ذلك الحاجز الذى يفصل بين الكسب البشرى الموفق من جانب ، والاصطفاء الإلهى والاجتباء الربانى من جانب آخر - أو بتعبير آخر - ذلك الحاجز الذى يفصل بين الولاية والنبوة .

لقد جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك . فقال :

(اقرأ).

قال : (ما أنا بقارئ).

قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

(اقرأ).

قلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال :

(اقرأ).

فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ (١).

---

(١) العلق ١، ٢، ٣.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال : زملونى فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر :

« لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة :

« كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف. وتعين على نوائب الحق».

فانطلقت به خديجة ، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة .

لقد كان ورقة : عربيًا أصيلاً من ذروة بيوتات قريش .

وهو كما يروى صاحب الأغانى - : « أحد من اعتزل عبادة الأوثان فى الجاهلية ، وطلب الدين، وقرأ الكتب ، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان ».

طلب ورقة الدين ولم يكتف فى طلبه باللغة العربية ، بل لعل اللغة العربية إذ ذاك : لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة فتعلم العبرانية .

يقول الإمام البخارى عنه :

« وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ».

وهو القائل هذه الأبيات الشائعة فى الأوساط المؤمنة :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته

يبـــقى الإله ويودى المال والولد

لم تغن عن هرمز ، يوماً خزائنه

والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ دان الشعوب له

والجن والإنس تجرى بينها البرد[1].

ولقد سئل عنه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فيما بعد فقال :

« قد رأيته فى المنام : كأن عليه ثيابًا بيضًا ، فقد أظن : أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض » .

وقد كان ورقة : معروفاً بالعقل الناضج، والمعرفة الواسعة، والإخلاص المخلص، وقد كان فى فترة بدء الوحى هذه : « شيخاً كبيراً قد عمى ، أى أنه مر بالتجارب الكثيرة فى الدين والدنيا، وأصبح لا يرجو إلا حسن الخاتمة ، والعمل - ما استطاع - فى سبيل الله .

من أجل كل ذلك انطلقت السيدة خديجة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه إليه وقالت له :

« يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ».

---

(١) البرد : جمع بريد ، وهو : الرسول .

فلما أخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، قال ورقة دون تردد ولا تلعثم ولا انتظار :

« هذا هو : الناموس الذى نزل الله على موسى ».

قال ذلك فى يقين جازم ، وفى إيمان مؤمن .

أما الأسباب التى دعت ورقة إلى هذا القول : فإن منها لاشك : معرفته بحياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لقد كانت حياة طاهرة عفيفة ، كان صلوات الله وسلامه عليه عازفاً عن طلب المجد الزائف ، والجاه المفتعل ، وكان بعيداً عن أن يكون عبداً للدنيا .

ولقد سمع ورقة حديثاً يعكس صورة صحيحة مخلصة للصدق الصادق. وسمع هذا التعبير البرىء عن عنصر المفاجأة فى الموضوع . إن الحديث لا يتسم بمنطق مروى . ولا بتفكير مدبر، ولا بمحاولة أيا كانت للتلبيس والزيف. إنها البراءة المطلقة .

لقد فاجأه الملك على غير انتظار ، وعلى غير توقع ، وفاجأه فى خلوة يرجو فيها رحمة الله، ويأمل فيها رضاءه ، وفاجأه بأمر لم يكن له على بال .

« اقرأ »

« ما أنا بقارئ ».

ففاجأه الملك بأمر غريب آخر : لقد أخذه ، فغطه حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله ، وقال له من جديد : « اقرأ ». وتكرر ذلك.

ورجع رسول الله ﷺ « يرجف فؤاده ».

لقد غمره الروع ، وما أن وصل إلى المنزل حتى صاح :

« زملونى زملونى » .

فلما ذهب عنه الروع ، قص على السيدة خديجة رضى الله عنها ما رأى ثم قال :

« لقد خشيت على نفسى ».

إن كل ذلك : برهان واضح على الصدق، وعلى الإخلاص، فإذا ما أضيف ذلك إلى ما يعرفه ورقة من حياة الرسول ﷺ فإن ثمرة ذلك : التصديق والإيمان .

بيد أن النور الذى غمر ورقة ، إنما كان إشعاع قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١).

حينما سمع ورقة أول آية من القرآن .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ؛

لم يملك أن آمن بأن هذا الذى يتلى - إنما هو : وحى من السماء .

إن : « اقـرأ باسم ربك » . تنص على أن القـراءة . لا تكون باسم وزير ، ولا أمير ، ولا باسم منفعة شخصية ، ولا باسم مصلحة

---

(١) العلق ١.

إقليمية ، ولا باسم غاية مادية أيا كانت ، ولا باسم وطن أو بيئة ، وإنما هى : باسم الله ، وإذا كانت باسم الله ، فإنها تفيد الشخص ، باعتباره فرداً ، وتفيد المجتمع الخاص الذى نسميه : « وطناً » وتفيد المجتمع الإسلامى العام، بل وتفيد الإنسانية جمعاء.

وإذا ما تجردت القراءة لله تعالى ، وكان هدفها الأول والأخير هو : الله : مصدر الخير والنور . كانت خيراً ؛ وكانت نوراً فى جميع الأرجاء وفى جميع الأزمان .

وما كان يقصد القرآن قط بهذه الكلمة الأولى : القراءة وحسب، وإنما كانت القراءة : رمزا لكل ما يأتيه الإنسان فى الجانب الإيجابى وكل ما يدعه الإنسان فى الجانب السلبى .

إن هذه الكلمة الأولى . تريد أن تقول : « اقرأ باسم ربك ، تحرك باسم ربك ، تكلم باسم ربك ، اعمل باسم ربك .. أما إذا امتنعت عن حركة أو فعل : فينبغى أن يكون ذلك أيضاً باسم ربك ويكون معنى الآية فى النهاية : جرد حياتك كلها وكيانك كله : أسباباً وغايات لله سبحانه وتعالى ».

وإذا كانت الآية الكريمة : واضحة المعنى فى الجانب الإيجابى الذى يحث على القراءة ، والذى يحث عن أن تكون القراءة باسم الله. فإن الجانب السلبى ، قد نزلت فيه - فيما بعد - آيات صريحة الدلالة واضحة المعنى ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ (١).

وأما ما ذبح على النصب : فلم يرد به وجه الله تعالى ، فهو أيضاً فسق . لأنه لم يذكر اسم الله عليه ، فكل مالم يذكر اسم الله عليه إذن يجب الامتناع عنه .

أما الإقدام عليه فإنه فسق يتفاوت فى درجته ، من الرجس زيادة ونقصاناً .

وهكذا يضعنا الإسلام منذ : « اقرأ باسم ربك » أى منذ اللحظة الأولى من تاريخه ، على قمة الإخلاص ، وعلى قمة الإحسان، وفى خضم من التقوى، وعلى السنام من الصدق. فمادامت الحياة كلها لله : فليس هناك مجال للكذب، والرياء، والنفاق، والخديعة وإرادة غير الله بالأعمال.

* * *

(١) الأنعام : ١٢١.

اقرأ ... والتربية

ويقول الله تعالى فى هذه الآية الأولى.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١).

ولم يقل : اقرأ باسم الله . ذلك : لأنه أراد سبحانه ، منذ البدء أن يشير إلى أن هذا الدستور الإلهى النازل من السماء إنما هو تربية إنه ينزل باسم المربى ، وما دامت هذه التربية إلهية المصدر فهى إذن محكمة الإحكام كله ، كاملة فى جميع جوانبها، وقد قال الله تعالى ؛ فيما بعد - عن هذا الدستور :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٢).

وقال الله تعالى :

﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(٣).

والتربية التامة ، تشتمل على جانب العقيدة ، وجانب الأخلاق وجانب التشريع.

---

(١) العلق : ١. (٢) هود : ١. (٣) فصلت : ٤٢.

ولقـد نزل الدسـتـور الإلهى على التـوالى مـبـينًا لكل هذه الجوانب مفصلا لها، ولكن الله سبحانه وتعالى بين فى هذه الآية التى بين أيدينا. أن هذه التربية يجب أن تتقبل دون تشكك أو تردد لأنها من الذى خلق، ذلك أن الذى خلق، فكوَّن كل خلية فى الجسم ونسقها مع غيرها. لتؤدى ويؤدى المجموع وظائف معينة، هذا الذى فعل ذلك، محيط علمًا بالإنسان المربَّى، فهذه التربية ليست من كائن لا صلة له بالمخلوق، وإنما هى تربية الخالق نفسه الذى أحاط بدقائق الخلق وعرف ما تحتاج إليه مخلوقاته، وعرف الضار والنافع وعرف الخير والشر، فتربيته إذن قيادة على علم. وهداية على بصيرة، وهى من أجل ذلك كله « تربية خالدة » لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، لأن الإنسان ، هو الإنسان أينما وجد وأينما كان لم يتبدل خلقًا بخلق ، ولا تركيبًا بتركيب .

* * *

اقرأ ... والإخلاص

حينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى ... لم يملك أن آمن ، وماذا يمكن أن تقول ، لشخص تجرد إلى الله، ويدعوك أن تتجرد إليه سبحانه، شخص لم يطلب مالا ، ولا جاها، ولا زعامة، ولا ملكا إنه يريد أن تقرأ الإنسانية كلها باسم ربها، وأن تقوم في كيانها كله على أساس من تربية ربها . ماذا يمكن أن تقول له ؟ أيمكن أن تقول له: إنك كذاب ، فما هو الصدق إذن ؟.

أيمكن أن تقول له : إنك منافق ، فأين هو الإخلاص ؟ إن هذه الكلمة الأولى ، قادت ورقة ، فور سماعها إلى الإيمان.

* * *

اقـرأ ... والعـــــلم

ونعود إليها من جديد ، ونرى إشارتها إلى معان أجملناها فيما سبق ، ونريد أن نفصل فيها بعض التفصيل :

كانت : « اقرأ » دعوة آمرة ، إلى الثقافة ، إلى العلم ، إلى الفكر، إلى البحث المستفيض فى السماء وفى الأرض ، وفى الجبال والبحار، وفى كل ما خلق الله تعالى . من كائنات صغرت أم كبرت إنها .. اقرأ بإطلاق ، إنها : اقرأ دون تحديد ولا تقييد: اللهم إلا أن تكون باسم الله.

ولقد اتسم الإسلام ، منذ هذه الكلمة بالطالع العلمى : كسمة تجاور السمات الأخرى ، التى سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [1] : ذلك أحد شعارات المسلم ! ومن استوى يوماه، فهو مغبون . ومن لم يكن إلى زيادة فهو إلى نقصان، وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وإن مداد العلماء المتقين ليوزن فى ميزان الخير والحسنات بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء .

---

(١) طه : ١٤١.

إن الله سبحانه وتعالى : قد امتن علينا فى آيات كثيرة من القرآن بأنه سخر لنا الليل والنهار والشمس والقمر ، وسخر لنا الأرض والسماء وما بين الأرض والسماء .

والامتنان الإلهى بهذا ، معناه : دعوة صريحة للمسلمين أن يستجيبوا إلى التوجيه الإلهى، فيسخروا كل ذلك بالعلم والمعرفة، ويمتلكوا الكون مستعملين الملاحظة والتجربة فى نفع الإنسانية، ولكن العلم والمعرفة فى الإسلام : لا يقتصران على الجانب المادى، لأن النظرة الحديثة الإسلامية ، أوسع بكثير ، وأعمق من النظرة الحديثة الأوربية التى تقصر العلم على الجانب المادي.

إن العلم المادى : علم تسخير الكون ، يحث عليه الإسلام، ولكنه لا يقف عنده ، فغاية المسلم: تتمثل فى قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ (1) .

وإن : « اقرأ باسم ربك » توجهنا مباشرة نحو هذا المنتهى ، العلم : عبادة ، وإذا كنا - كمسلمين - مدعوين إلى تسخير الكون ، مأمورين بتسخيره فى سبيل الله ، وتذليله رجاء مرضاة الله، فنحن، بهذا : متجهون إلى الله غير ناظرين إلى هذا التسخير ، وإنما إلى الكون ، وبذلك : يكون التسخير نفسه عبادة.

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله

---

(1) النجم : ٤٢.

ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها : فهجرته إلى ما هاجر إليه » [1].

فالسيطرة على الطبيعة ، في الوضع الإسلامى الصحيح هجرة إلى الله.

إنها قراءة باسمه، فهى داخلة فى نطاق : « اقرأ باسم ربك ».

وإذا قرأت باسم ربك : فأنت عابد فى أعمالك وفى أقوالك.
والعلم فى الإسلام ، على الوضع الصحيح، إذن : عبادة ، حتى فى الجانب المادى منه.

ولا يتأتى : ولن يتأتى ، أن يقف الإسلام عقبة فى سبيل العلم، وأن يتعارض الإسلام مع العلم الحديث.

إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم . إنما نشأت فى أوربا بعيدة كل البعد عن الروح الإسلامية التى حثت الإنسانية على التعليم والتى ولد المنهج العلمى الذى يسمونه : « المنهج الحديث » بين ربوعها، والتى أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أبحاثها العميقة ، وما من شك فى أن الحضارة الإسلامية ، هى التى قد قدمت للحضارة الغربية الحديثة منهجها ، وقدمت لها الكثير من الحقائق العلمية فى كثير من المجالات المختلفة .

---

(١) من حديث البخاري باب بدء الوحى.

إن المنهج العلمى الحديث فى أوربا ، يرجع إلى (روجربيكون) فهو الذى أذاعه ونشره فى أرجاء أوربا .

ويتحدث الأستاذ (بريفولت) فى كتابه « بناء الإنسانية » فيقول عن (روجربيكون):

إنه درس اللغة العربية والعلوم العربية ، فى مدرسة أكسفورد على خلفاء العرب فى الأندلس ، وليس لروجربيكون ولا لسميه الذى جاء بعده - الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجربيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة ، والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى : هى طرف من التحريف الهائل ، لأصول الحضارة الأوربية .

وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر ، « بيكون »، قد انتشر انتشاراً واسعاً ، وانكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا [1].

ويقول ، (بريفولت) أيضاً :

---

(١) **تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، تاليف محمد إقبال ، ترجمة الأستاذ عباس محمود .**

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا ، لم تنهض فى عنفوانها ، إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده؛ هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية [1] أ. هـ .

وإذا كان الإسلام ، هو الذى أنشأ هذا المنهج وهذا العلم ، فمن الطبيعى ألا يتعارض معه.

على أن مسألة التعارض بين الدين والعلم ، إنما هى مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر.

وذلك أن العلم دائرته : المادة والحس ، أما الدين ، فدائرته : (ما وراء الطبعية) والخير والفضيلة ، فهما لا يلتقيان فى الموضوع فكيف يتعارضان ؟

إن ملاحدة العصر الحاضر : يتوهمون مشاكل لا أساس لها ثم يضعونها على بساط البحث ، ويتناقشون فيها ويتجادلون ، وعلى مر الزمن ، يضفى الإلف عليها - وهى وهمية - صورة من ظلال الحقائق فيظن بعض الناس أنها مشاكل جديرة بالبحث والنظر، ومن ذلك مسألة التعارض بين العلم والدين ، مع أنه ، لا اتحاد بين موضوعيهما .

(١) المصدر السابق.

العلم فى الإســلام أوسع دائرة

وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادى ، فإن الإسلام لا يقف عند ذلك ، وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة ، هو القلب أو هو الروح والبصيرة .

إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشراقية، أو الكشفية أو الإلهامية ، ويجمع الإسلام الاتجاه العلمى الحديث إلى الاتجاه البصيرى فى قوله :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (1).

فالسمع ، والبصر ، هما أساس العلم المادى، علم التجربة والملاحظة. أما القلب : فإنه أساس العلم الإلهامى.

إن الله سبحانه وتعالى ، يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة، ويوجهه أيضاً إلى الاستشراق ، للهداية والنور القلبى عن طريق الخلق الكريم، والتقوى ، والإخلاص ، وحب الإنسانية ، والمعاونة فى الخير.

---

(1) الإسراء : ٣٦ .

وإذا كان الإسلام ، أوسع نظرة ، فى الجانب العلمى عن الحضارة الحديثة ، وأدق وأشمل، فإنه يختلف معها اختلافًا جذريًا حاسماً فى مسألة الإرادات والنوايا، وفى أمر الأسباب والبواعث ، وفى اتجاه الغايات والأهداف.

إن الحضارة الحديثة تقول :

العلم لا صلة له بالأخلاق.

أو تقول العلم لا أخلاقى.

والعلم فى نظرها ، لا شأن له بالخير والشر.

ولكن الإسلام ، يجعل أسس العلم متسعة بالخير، ويجعل غايته منغمسة فى الخير ، ويجعل من العلم قربى إلى الله، ويجعل منه عبادة لله ، إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم .

إن العلم فى الجو الإسلامى قراءة باسم الله.

ومن هنا كانت حضارة الإسلام ، حضارة رحمة وهداية لا حضارة تدمير وتخريب .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١).

تلك حقيقة فى الدين الإسلامى، سواء نظرنا إلى أساسه أو نظرنا إلى غايته .

أما الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه (رحمة مهداة) .

---

(١) الأنبياء ١٠٢.

الجهر بالدعوة وإثبات الرسالة

مكثت الدعوة الإسلامية سرية [1] ثلاث سنوات ، ثم أمر صلوات الله وسلامه عليه بالجهر بها ، فصعد على الصفا فقال :

يا معشر قريش.

فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف . فأقبلوا واجتمعوا.

فقالوا : مالك يا محمد ؟ :

قال :

أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى.

قالوا : نعم .

أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط.

قال :

« فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ».

---

(١) مرحلة سرية الدعوة ذات أهمية خاصة فى منهج العمل مع الجماعة إذ هى مرحلة إعداد القيادة المحلية.

يا بنى عبد المطلب . يا بنى عبد مناف. يا بنى زهرة ... حتى عدد الأفخاذ من قريش.

إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ؛ وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا: « لا إله إلا الله».

وإذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد طرح الثقة على قريش برفعه علم الأمانة هذا فى وجوههم فإنه كان مطمئناً واثقا من أن حياته هى من الصفاء بحيث لم يشبها ما يجعل رأى قريش فيه قبيحًا. لقد كانت حياته، البراءة الكاملة، والطهر التام. وهذا ما دعاه إلى أن يتحدى ، فى صراحة وأن يعلن فى وضوح، أن حياته تثبت صدق ما يقول.

ولو تمثلت الأمانة - الصدق والإخلاص - فى كل من يحيطون به لما كان فى حاجة إلى رفع علمه هذا ، فقد كان يكفى الإخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة .

وقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون ، لما توافر فيهم من الصدق والإخلاص لأنفسهم وللآخرين . أى لما توافر فيهم من الأمانة. لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر ، وآمن ورقة وغيرهم بمجرد أن أخبرهم بأمره؛ آمنوا لما يعرفونه فيه ولما يعلمونه من حياته . ولقد أقر بهذه الصفة - صفة الأمانة - أبو سفيان ، فى وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول :

سأله هرقل قائلاً : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فقال أبو سفيان : لا ، وكان استنتاج هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسأل هرقل أبا سفيان أيضاً عما إذا كان قد أثر عن محمد غدر؟ فأجاب أبو سفيان بالنفى.

فقال له هرقل : سألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر.

أما إثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى وهى القرآن ، وتحدى العرب به ، لقد تحداهم به فى عنف وتحداهم متدرجاً بهم ، إذ طلب إليهم :

أولاً : أن يأتوا بمثله فقال الله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١).

فلما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بعشر سور مثله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢).

---

(١) الإسراء ٨٨ .

(٢) هود ١٣ .

فلما عجزوا طلب إليهم أن يأتوا بسورة من مثله :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١).

عن كل ذلك عجز المشركون ، فثبت : أن هذا الكتاب من لدن الله.

أما عن حياته صلوات الله وسلامه عليه : فإن القرآن تحدث عنها من زوايا مختلفة .

لقد تحدث عنها فى صراحة لا لبس فيها.

وتحدث عنها فى إشارات ذات مغزى ، وتركنا ، فضلاً عن ذلك ، نستنتج من الأخبار الكثيرة التى قصها عنه : جوانب لا تحصى من السمو الأخلاقى الكريم :

١ - ولقد تجرد صلوات الله وسلامه عليه من كل مطمح دنيوى.

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة ٢٣ ، ٢٤.

(٢) سبأ ٤٧.

٢ - ولقد لبث فيهم ، من قبل ذلك ، أربعين عاماً ، فلم يحدثهم بنبوة ولا برسالة .

﴿ قل لَّوْ شاءَ اللَّهُ ما تلوتُهُ عليكُمْ ولا أدراكُم به فقدْ لبثْتُ فيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أفَلا تعْقِلُونَ ﴾ (١).

٣ - ويطلب إليهم القرآن الكريم أن يتفكروا فى أمر صاحبهم هذا الذى نشأ بينهم ، وترعرع على مرأى ومسمع منهم:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٢).

ويشرح الزمخشرى هذه الآية شرحاً لطيفاً فيقول ما ملخصه:

إنما أعظكم بواحدة ، إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم ، وهى أن تقوموا لوجه الله خالصاً، اثنين اثنين، أو واحداً واحداً: «ثم تتفكروا» فى أمر محمد ﷺ وما جاء به.

أما الاثنان : فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه متصادقين ، متناصفين: لا يميل بهما اتباع الهوى ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك

(١) يونس ١٦. (٢) سبأ ٦.

الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة ، ومن غير أن يكابر، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده : من عادات العقلاء، ومجارى أحوالهم.

والذى أوجب تفرقهم مثنى وفرادى : أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويمنع من الروية ، ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف .

وقد علمتم : أن محمدًا ﷺ ما به من جنة . بل علمتموه، أرجح قريش عقلاً ، وآصلهم رأيا، وأصدقهم قولاً ، وأنزههم نفسا، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير.

وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية .

٤ - ويصف القرآن الكريم جانباً من جوانب حياته ، ويصف دعوته أيضاً فيقول :

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ (١) .

وإذا وقفنا قليلاً عند هاتين الآيتين ، فإننا نجد أن الآية الأولى تريد أن تقول :

---

(١) العنكبوت ٤٨ ، ٤٩.

إنه حتى لو فرضنا أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه كان يقرأ ويكتب ، وأنه كان يتلو من قبله كتاباً أو كان يخطه بيمينه لاقتصر الارتياب على المبطلين فحسب . ذلك أن معانى الكتاب ومفاهيم الدعوة التى أتى بها ، والقواعد والمبادئ التى يبشر بها ، كل ذلك ، آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، لا ينفيها ولا يجحدها إلا الظالمون ، والظالمون فى كل آونة يجحدون الحق وينكرون المنطق السليم .

٥ - ويتوج القرآن الكريم تحدثه عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بهذه الكلمة العميقة :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١).

إن الدعوة الإسلامية : آيات بينات فى منطق الحق ، وفى منطق العقول المستنيرة .

وها هو ذا (أكثم بن صيفى)، أحد حكماء العرب : ينتهج بفطرته السليمة ، هذا المنهج من الاستدلال على صدق الرسول ﷺ بدعوته.

يذكر (الآلوسى) أنه لما ظهر النبى ﷺ ، بمكة ودعا إلى الإسلام فبعث أكثم بن صيفى ابنه « حبيشا » ، فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال لهم - فيما قال :

---

(١) القلم ٤.

« إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران، وقد حلف - عرف - ذوو الرأى منكم : أن الفضل فيما يدعو إليه وأن الرأى ترك ما ينهى عنه » .

ثم يقول هذه الكلمة الرائعة :

« إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن ديناً لكان فى أخلاق الناس حسنا ».

وقد كان الاستدلال بصدق الدعوة على صدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، هو المنحى الذى سار فيه جعفر بن أبى طالب رضوان الله عليه ، حينما سأله النجاشى عن أمر دينه ، وذلك أنه لما فر المسلمون بدينهم إلى الحبشة مهاجرين إليها بسبب ما نالهم من تعذيب أليم ، وأرسل القرشيون وفداً إلى النجاشى، فيه عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، لرد المهاجرين إلى مكة، ليعذبوهم من جديد ، ولما التقى الوفد بالنجاشى قال له عمرو بن العاص :

« إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم : من آبائهم ،

وأعمامهم ، وعشائرهم ، لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عينا (أى أبصر بهم) وأعلم بما تابوا عليهم .

فلما سمع النجاشى كلامهم ، رأى أن الحكمة ألا يسلم إليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم وحجتهم ، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءوا قال لهم : ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟.

فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ، فقال له :

أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ...

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه : من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .

ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة .

وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة ، والصيام - وعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا.

فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا ، عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك.

ولما قرأ عليه صدراً من سورة مريم بكى النجاشى ، ثم قال :

إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت إلى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص فقال لهما :

(انطلقا : فلا والله لا أسلمهم إليكما).

لقد علم النجاشى ، فور سماعه المبادئ الإسلامية « أن هذه المبادئ حقة ، وأنها : آيات بينات ، لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة ، وعلم أن ما أتى به محمد صلوات الله وسلامه عليه ، إنما يصدر من المنبع الذى كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام ».

وبعد : فإن سيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه والمبادئ

الإسلامية من أهم الوسائل التى ينبغى أن يتجه إليها المبشرون بالدين الإسلامى لنشر الإسلام .

على أن هذا المنهج من الاستدلال بالدعوة على الصدق، وجعل النظر فى الدعوة ، إحدى الوسائل التى تسلم مع غيرها من الملابسات إلى اليقين بصدق الداعى ، هذا النهج الذى اتخذه هرقل والنجاشى، هو النهج الذى أقره الإمام الغزالى ، فإنك إذا أكثرت النظر فى القرآن والأخبار ، يحصل لك العلم الضرورى بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة .

وأعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات ، وتأثيرها فى تصفية القلوب ، وكيف صدق فى قوله :

« من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ».

وكيف صدق فى قوله :

« من أعان ظالماً ؛ سلطه الله عليه ».

وكيف صدق فى قوله :

« من أصبح وهمومه هم واحد - هو التقوى - كفاه الله هموم الدنيا والآخرة ».

فإذا جربت ذلك فى ألف، وألفين ، وآلاف ، حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه ، بأنه صلوات الله وسلامه عليه ، على أعلى درجات النبوة .

إن النظر إلى الدعوة الإسلامية فى نظر الإمام الغزالى هو إحدى الوسائل التى تثبت صدق الرسول ﷺ .

وقد تابع هذا الاتجاه فى الاستدلال ، العالم الاجتماعى الكبير ابن خلدون ، وهو يستوعب - فى نظرة عامة - الكثير من الاتجاهات المستقيمة فى شأن النبوات، وننقل هنا ما كتبه خاصًا بموضوع الاستدلال بالدعوة - حينما تكون الدعوة خيراً محضاً، كالدعوة الإسلامية - على صدق الرسول فيما يدعو إليه ، يقول :

ومن علامتهم أيضاً :

دعاؤهم إلى الدين والعبادة ، من الصلاة ، والصدق والعفاف، وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلته ، وفى الصحيح :

أن هرقل حين جاءه كتاب النبى ﷺ ، يدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد فى بلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان ، يسألهم عن حاله ، فكان فيما سأل أن قال :

بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة ، والزكاة ، والصلة، والعفاف إلى ... آخر ما سأل ، فأجابه ، فقال :

إن يكن ما تقوله حقا فهو نبى ، وسيملك ما تحت قدَمى هاتين ، والعفاف الذى أشار إليه هرقل هو : العصمة .

« فانظر كيف أخذ من العصمة ، والدعاء إلى الدين ،

والعبادة دليلاً على صحة نبوته ، ولم يحتج إلى معجزة فدل ذلك على أن ذلك ، من علامات النبوة ».

وشيء آخر له مجاله الكبير في إثبات الرسالة ، ذكرته السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث (بدء الوحي) ، وهو : أن الله سبحانه حبب إلى رسوله ﷺ الخلاء فكان قبيل الوحي يغادر مكة ، ويبتعد عن حياتها الصاخبة ، التي كان يرى فيها من الضلال الشيء الكثير.

يتركها ليخلو بغار حراء فريداً يتأمل ويرجو ويسجد لله متعبداً خاشعاً طالباً رضاه ، آملا في هدايته ، كان يتحنث في هذا الغار ، أي يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود ليعود من جديد إلى النسك ، وإلى العبادة.

لم يكن إذن يطلب مالاً أو ثراء أو لذة مادية أو جاهاً أو مجداً عند الناس ، إنه يطلب الهداية ويبحث عنها .

ولقد وضح عزوفه عن زخارف الحياة وضوحاً بيناً في قوله وسلوكه ، وتذكر السيرة النبوية نبأين لهما مغزى واحد عميق :

أما النبأ الأول فهو : أن عتبة بن ربيعة - وكان سيداً في قومه - قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد ، فأكلمه وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء.

وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه :

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال :

(يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت ، من السطة فى العشيرة ، والكمال فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها.

فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع ».

قال : يا ابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا : جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل : حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول ﷺ ، يستمع منه قال : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟.

قال : نعم .

قال : فاسمع منى .

قال : أفعل .

قال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾(1).

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه.

ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة ، ثم قال ؟« قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك ».

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : « ما وراءك يا أبا الوليد ؟ » قال : «ورائى : أنى سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه : فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى

---

(1) فصلت : ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ».

قالوا : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ».

قال : « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم ».

قد يقول قائل : إنه لو عرض على محمد ﷺ هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل. هذا القول ينقضه: أن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش، وينقضه أيضاً الخبر الآخر الذى ترويه كتب السيرة :

لقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث - أخو بنى عبد الدار - وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، عليه لعنة الله، وعبد الله بن أبى أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية ابن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض :

« ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه » .

« فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم.

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً - وهو يظن أن قد بدا لهم

فيما كلمهم فيه » وكان عليهم حريصاً : يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم - حتى جلس إليهم فقالوا له :

« يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك.

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً، تراه قد غلب عليك - وكان يسمون التابع من الجن رئياً - فربما كان ذلك ، بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك » فقال رسول الله ﷺ:

« ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىَّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ سأصبر لأمر الله ، حتى يحكم بينى وبينكم ».

هذا العزوف عن المجد والجاه عند الناس ، وعن المال والثراء

وعن الدنيا كلها : تؤيده حياته ، صلوات الله وسلامه عليه ، من أولها إلى آخرها، ويؤيده القرآن تأييداً حاسماً :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وحبط ما صنعوا فيها وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (٢).

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٣).

وعن جبير بن نفير رضى الله عنه قال : (دخلت على عائشة رضى الله عنها ، فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : القرآن).

وحقيقة الأمر أن رسول الله ﷺ كان فى كل ما يأتيه وفى كل ما يدعه قرآناً مطبقاً ، ومن هنا كان قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤).

---

(١) هود : ١٥ ، ١٦. (٢) الإسراء : ١٨.

(٣) الحديد ٢٠. (٤) القلم ٤.

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس: (أتى إليه صلوات الله وسلامه عليه سبعون ألف درهم فوضعها - كما يروى هارون بن رباب - على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها) .

وبينما هو عائد من حنين ، تكاثرت الأعراب عليه يسألونه ، وخطفوا رداءه فوقف رسول الله ﷺ وقال :

« أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضاة - شجر عظيم له شوك - نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً ».

ويقول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه :

« مالي وللدنيا »؟

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« عرضت على الدنيا فأبيتها ».

ولقد كان رسول الله ﷺ - كما يروى عن أنس رضى الله عنه- : أحب إنسان إلى الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم كانوا إذا رأوه لا يقومون له، لما يعرفون من كراهيته له « أى القيام له » ويقول ﷺ لأصحابه :

« إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » . ويقول ﷺ لأصحابه وهم جالسون حوله :

« إن مما أخاف عليكم من بعدى : ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » .

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : ما كان يتطلع إلى الدنيا فى مختلف جوانبها وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (١) .

عزوفه ﷺ عن الدنيا إذن : قضية هى من البداهة بحيث تفجأ فى النظرة الأولى ، كل دارس لسيرته ﷺ .

وحينما رفعه الله إليه ، لم يترك الضياع والعمارات ، والبساتين ، ولم يترك الآلاف المؤلفة من الذهب والفضة ، وإنما ترك وراءه مبادئ الحق التى أوحاها الله إليه ، والتى مكث طوال حياته يجاهد بقوله وعمله فى سبيل إقامتها ونشرها، ويكافح كفاحًا لا يهدأ ولا يفتر فى سبيل تدعيمها ، وترك وراءه رجالاً يؤمنون بهذه المبادئ ، ويشقون بأنهم مكلفون - باعتبارهم من المسلمين - بنشرها وإذاعتها بين أرجاء العالم أجمع ، وترك عبيرًا يتضوع رحمة ويشع نورًا ، مهما طالت القرون وتطاولت الأزمنة .

---

(١) آل عمران : ١٤.

إنه ﷺ هو تلك الصورة الحية للتطبيق القرآنى فكان ﷺ عازفًا عن الدنيا ، ما فى ذلك من شك ، وكان عازفًا عن الدنيا لسميه وراء الآخرة ، وعزمه المصمم على أن يكون فيما يأتى وفيما يدع مرضيًا لله تعالى ، ومن كان كذلك كان صادقًا حتمًا .

وعزوفه عن الدنيا من أقوى الأدلة على صدقه وعلى إخلاصه صلوات الله وسلامه عليه .

بيد أن هذا العزوف عن الدنيا : لا يعنى إلا عدم تعلق القلب بها ، ولكن السيطرة عليها ، وامتلاكها ، وتسخيرها فى سبيل مرضاة الله : من واجبات كل مسلم ، والمسلم مكافح دائمًا فى سبيل الله ، ومن أجل مرضاته ، وقد امتلك المسلمون الأول الدنيا ، ودانت لهم المعمورة ، وخضعت لهم المادة ، فاستخدموا كل ذلك فى الخير وإسعاد الإنسانية .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الإسلام والعلم ، وعن الإسلام وتسخير المادة ، وقلنا : إن ذلك عبادة .

وعزوفه صلوات الله وسلامه عليه ، عن الدنيا : من أقوى الأدلة على صدقه ، وعلى إخلاصه .

* * *

الإســـراء والمعــراج

وترقى به إلى قـــاب قـــوسـ

ـين وتلك الســيادة القـعـســاء

رتب تســقط الأمــانى حــســرى

دونهـــا مـــا وراءهــن وراء

ثم وافى يحـــدث النـاس شكرًا

إذ أتتـــه من ربه النـعـــمـــاء

يقول الله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ

---

(١) الإسراء : ١.

إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ (١) .

هذه هى الآيات القرآنية عن الإسراء والمعراج .

أما الأحاديث النبوية : فإنها كثيرة مستفيضة ، ولقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابيًا يكمل بعضها بعضًا .

ونحن هنا لا يعنينا أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته فإنه معروف عادة للمسلمين وإنما الذى يعنينا أن نذكر على الخصوص الجانب الأخلاقى فيه ، وجانب المغزى منه .

ولقد قدم ابن إسحاق - حسبما يروى ابن هشام - لحديث الإسراء بكلمة جميلة ، يقول فيها :

« وكان فى مسراه ، وما ذكر منه : بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله ، فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة ، لأولى الألباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء : ليريه من آياته الكبرى ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره ، وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » .

---

(١) النجم من ١-١٨.

ومجمل الأمر ، أن رسول الله ﷺ بينما كان نائما ، أتاه جبريل ، فأيقظه وخرج معه ؛ فإذا أمامهما دابة بيضاء هى البراق ، وركبها رسول الله وسارت الدابة ، وجبريل معه - على حد تعبيره ﷺ « لا يفوتنى ولا أفوته » حتى انتهى إلى بيت المقدس .

فوجد فيه إبراهيم ، وموسى ، وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمهم رسول الله ﷺ ، وصلى بهم ، ثم أتى بإناءين ، بأحدهما : خمر وبالآخر لبن ، فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن ، وشرب منه ، وترك إناء الخمر فقال له جبريل :

« هديت للفطرة ، وهديت أمتك ، وحرمت عليكم الخمر » .

تروى كتب السيرة أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : أتاه ليلة الإسراء آت ، ففرج صدره ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطشت من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا ، فأفرغه فى صدره الشريف ثم أطبقه . ولما انتهى صلوات الله وسلامه عليه من بيت المقدس عرج به إلى السماء ، وأخذ يرتقى سماء سماء ، ثم تجاوزها جميعًا إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، وهناك حيا الرسول صلوات الله وسلامه عليه ربه .

« التحيات لله ، والصلوات والطيبات »

وحياه الله سبحانه وتعالى :

« السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله » .

وفى هذه اللحظات الخالدة ، التى لا يتأتى أن توصف ، فرض الله سبحانه وتعالى ؛ الصلاة على الأمة الإسلامية .

عن ابن عباس رضى الله عنه - فيما رواه الإمام أحمد - قال : قال رسول الله ﷺ :

« لما كانت ليلة أسرى بى ، وأصبحت بمكة ، فظعت أمرى ، وعرفت : أن الناس مكذبى » .

قال فمر عدو الله : أبو جهل ؛ فجاء حتى جلس إليه ، فقال له أبو جهل كالمستهزئ :

هل كان من شىء ؟

فقال رسول الله ﷺ : نعم .

قال : ما هو ؟

قال : إنه أسرى بى الليلة .

قال : إلى أين ؟

قال : إلى بيت المقدس .

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال نعم :

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجحده الحديث ، إذا دعا قومه إليه .

قال : أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى ؟

فقال رسول الله ﷺ : نعم .

فانطلق أبو جهل إلى قريش ، فقال :

هيا يا معشر بنى كعب بن لؤى .

قال : فانتفضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتنى .

فقال رسول الله ﷺ : إنى أسرى بى الليلة .

قالوا : إلى أين ؟

قال : إلى بيت المقدس ؟

قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال : نعم .

فإذا بالقوم بين مصفق ، وبين واضع يده على رأسه متعجبًا للكذب ... زعم .

قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ؟

فقال رسول الله ﷺ : « فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت » .

قال : فجيء بالمسجد ، وأنا أنظر حتى وضع دون دور عقيل فنعته وأنا أنظر إليه .

قال : فقال القوم : أما النعت فوالله : لقد أصاب .

وعن الحسن ، أنه فى يوم الحديث عن الإسراء ، ارتد كثير ممن أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر ، فقالوا له :

هل لك ، يا أبا بكر فى صاحبك ؟؟

يزعم أنه قد جاء هذه الليلة ! بيت المقدس ، وصلى فيه ، ورجع إلى مكة .

فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه.

فقالوا : لا ، هو ذاك فى المسجد ، يحدث به الناس .

قال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟

فوالله ، إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض، فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال :

يا نبى الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟

قال : نعم .

قال : يا نبى الله ، فصفه لى ، فإنى قد جئته ؟

قال الحسن : فقال رسول الله ﷺ : فرفع لى حتى نظرت إليه فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت أشهد أنك رسول الله ، كلما وصف له منه شيئًا قال : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى .

قال رسول الله ﷺ لأبى بكر :

وأنت يا أبا بكر « الصديق » فيومئذ سماه الصديق » .

هذا هو الهيكل الذى ترويه الكتب ! لهذا النبأ الجليل ! يسمعه قوم فلا يصل إلا إلى الجوانب الظاهرية منهم ، فيأخذون فى الجدل الشكلى أكان ذلك فى اليقظة ؟ أم كان ذلك فى النوم ؟ أكان ذلك بالروح والجسد ؟ أم كان بالروح فقط ؟

وهل كان ليلا ؟ أم كان نهارًا ؟

وهذه كلها صور من الجدل الذى يثور ، حينما يخف وزن الإيمان فى النفوس .

ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل إلى أعماق قلوبهم فيتجهون فى صورة طبيعية ، إلى مغزاه العميق ، وإلى روحانيته السامية ، ويرون أن هذا النبأ : ينطوى على توجيهات لا ينبغى أن يمر عليها الناس مر الكرام ... من هذه التوجيهات :

١ - لقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، خاتمة سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله إلى العالم بين الفينة والفينة :

لتهدى إلى الرشاد ، ولتقود إلى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ، لتصل بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو ، عن طريق الإرشاد الإلهى، وكان الكتاب الذى أنزل عليه صلوات الله **وسلامه عليه؛ وهو: القرآن ، خاتم الكتب ، وأكملها ومهيمنًا عليها .**

ولأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه : تخلق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو إذن : أكمل رسول ﷺ .

من هنا كانت إمامته صلوات الله وسلامه عليه ، بالرسل والأنبياء فى بيت المقدس ، ولأنه صلوات الله وسلامه عليه أكمل رسول كان من أجل ذلك : أقرب المقربين إلى الله سبحانه وتعالى ، لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل إلى ما لم يصل إليه بشر ، بل إلى ما لم يصل إليه جبريل نفسه عليه السلام ، لقد وصل صلوات الله وسلامه عليه إلى : « قاب قوسين أو أدنى » وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج : من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أخذ يتجاوز هذه السموات واحدة بعد الأخرى ، ويجاوز الأنبياء واحدًا بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ ، معنى مكانى ، فإنه أيضًا - بل وبطريق أولى - معنى روحى، أى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ فى معراجه إلى درجات تجاوزت- فى روحانيتها - آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت

يحيى، وعيسى عليهما السلام، فى سمائهما الثانية ، ثم تجاوزت يوسف عليه السلام فى سمائه الثالثة ... وهكذا حتى تجاوز روحيا إبراهيم عليه السلام ، فى سمائه السابعة .

ولقد تجاوز كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

ولكن بعض الناس، ينزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات **السامية ومن الرحاب الإلهى ... ينزل بنا منحدرًا ، فيجادل فى الإسراء والمعراج : أكان رؤية .. أم كان يقظة ؟**

أستغفر الله ، وأتوب إليه ...

إن ذلك الجدل ، إن دل على شىء ، فإنما يدل على ضعف الإيمان فى قلب المجادل .

٢ - **وإذا كانت التوجيهات السابقة : إنما كانت لتدلنا على** مقام رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فنزداد بذلك تقديرًا، وحبًا واتباعًا ، فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته فى نبأ **الإسراء والمعراج : هذه الرمزيات الأخلاقية التى تربط ربطا محكما بين الدين والأخلاق .**

والواقع ، أن الأخلاق فى جو الإسلام : مرتبطة بالدين ارتباطًا لا ينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ،

إنهاء جزء من الدين الإسلامى ، لا يتجزأ : مصدرها ، هو مصدر إلهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق : الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين ، فالضمير يربى ويلوّن ، وتربيته ولونه ، هما شكله ، ونزعته واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة ، والعصر ، والوسط .

إن الضمير يصنع كما تصنع المزيفات ، وهو إذن مقياس للأخلاق خاطئ .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة ، كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة ، إنما يتحدث باسم فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

والمصلحة العامة إذن ، كأساس للأخلاق ، إنما هى أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية ، أو إلى اللذة ، أو إلى المنفعة ، وكل هذا وارد الغرب الأوربى ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وألحد !؟

أما وارد الشرق الإسلامى : أو بتعبير أدق ، وارد الإسلام

الإلهى فإن مقياس الأخلاق فيه : إنما هو المبادئ الدينية ، إنما هو آيات القرآن ، وإنما هو الفضائل التى أوحاها الله سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التى حددها القرآن فى أسلوب عربى مبين .

وتحدث عنها نبأ الإسراء والمعراج فى صور رمزية دالة هادفة مؤثرة ، وبينتها السنة النبوية الشريفة :

سار رسول الله ﷺ فى مسراه فمر على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان :

فقال صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : ما هذا ؟

قال : هؤلاء هم المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شىء .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء هم الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة :

ثم أتى على قوم على اقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم .

فقال : ما هؤلاء ؟

قال : هـؤلاء هم الذين لا يؤدون زكاة أموالهم وما ظلمهم الله وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم: لحم نضيج طيب فى قدر طيب، ولحم خبيث نيئ فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث النيئ ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هولاء يا جبريل ؟

قال جبريل : هذا مثل الرجل من أمتك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة ، فيبيت عندها حتى يصبح ، ومثل المرأة : تقوم من عند زوجها حلالا طيبًا ، فتأتى رجلاً خبيثًا فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل !

قال : هذا مثل الرجل من أمتك ، يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يزيد عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم ، وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شىء .

قال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

قال : ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحًا طيبة باردة كريح المسك ، وسمع صوتًا .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت غرفى، وإستبرقى ، وحريرى ، وسندسى ، وعبقريى ، ولؤلؤى، **ومرجانى ، وفضتى ، وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى ، ومراكبى ، وعسلى ، ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فآتنى ما وعدتنى.**

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى **وبرسلى ، وعمل صالحًا ، ولم يشرك بى شيئًا ، ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل علىَّ كفيته ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد ، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين.**

قالت : قد رضيت.

ثم أتى على واد فسمع صوتًا منكرًا . ووجد ريحًا منتنة .

فقال ما هذا يا جبريل !

قال : هذا صوت جهنم تقول ، رب آتنى ما وعدتنى ، فقد كثرت سلاسلى ، وأغلالى ، وسعيرى ، وحميمى ، وضريعى وغساقى وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فآتنى ما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

٣ - ومن الثمار التى جنتها الأمة الإسلامية والتى كانت من مقاصد إذاعة النبأ :

انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمترددين ، انفصال كل هؤلاء عن الأمة الإسلامية الناشئة .

لقد كفر - عند سماع النبأ - من كفر بعد إسلامه ، وارتد من ارتد بعد إيمانه ، وما كان هؤلاء ، لو بقوا إلا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة .

إن هؤلاء المكيين الذين آمنوا ، وصبروا على الحوادث **القاسية : على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة فى جميع مظاهرها ، إن هؤلاء المكيين الذين صبروا وصابروا ، وتخلصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فأصبحت**

خالصة لله وحده ، إن هؤلاء المكيين الذين كان فى تقدير الله سبحانه وتعالى : أن تقوم عليهم الدولة فى نشأتها ، والذين من أجل ذلك يجب أن يكونوا مهيئين ، لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات . نقول :

إن هؤلاء المكيين : يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة .

ومن وسائل هذه التصفية : إذاعة نبأ الإسراء والمعراج ، لينتكس من ينتكس ، وليبقى من يبقى ، عن بصيرة وبينة ، وعن إيمان لا يتزعزع مهما كانت الحوادث ، إيمان بصدق الرسول ﷺ فى كل ما يأتى به ، يصدقه بمجرد إنبائه .

والمثل الأعلى فى كل ذلك : إنما هو سيدنا أبو بكر ، حينما يعلن فى غير تردد ولا فتور :

« لئن كان قاله ، فلقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

هذا الإيمان المطلق بالرسول هو الذى جعله صلوات الله وسلامه عليه يطلق على أبى بكر رضوان الله عليه (الصديق) ، (الصديقية) مرتبة من مراتب الإيمان لا ينالها إلا من جاهد نفسه جهادًا تخطى به إيمان العامة وسما فى إيمانه درجة درجة إلى أن أصبح قائمًا بالله متجهًا إليه . عاملا على مرضاته فى جميع ما يأتى وما يدع .

والأمة الإسلامية بأكملها : مطلوب منها بالنسبة إلى إخبار رسول الله ﷺ أن تكون على غرار الصديق رضوان الله عليه ، تلقى **بقيادها إلى أخباره ، وتسلم نفسها إلى أنبائه ، مصدقة تصديقا كاملا : تصديقًا يحملها على العمل وعلى اتباع كل ما جاء به وعلى** الانتهاء عن كل ما نهى عنه، تصديقا إيجابيًا يحقق للأمة الإسلامية المجد الذى ترجو ، تصديقا ينفى عن وجودها هؤلاء الذين انحرفوا **مع المنحرفين ، واستجابوا لنداء أعداء الإسلام . فأخذوا يشككون الناس فى أقوال الرسول ﷺ : فى أحاديثه ، وفى سنته زاعمين انهم من المجـــددين ، ومـــا هم فى الواقع إلا أبواق من أبواق المستشرقين والمبشرين .**

إن هذه الأقلام التى تشكك فى السنة وفى الأحاديث النبوية ليست إلا أقلامًا مقلدة للمستشرقين لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد، إنما تحمل طابع التقليد، وطابع الشك والتردد الذى **يتنافى مع الإيمان ، ويتنافى مع الصديقية .**

٤ - أما ثمرة الإسراء والمعراج ، وأما هدية الإسراء والمعراج وأما أعظم المنح الإلهية فى الإسراء والمعراج، أعظمها على الإطلاق.

أما النعمة العظمى : والتجلى الإلهى الأكبر فى الإسراء والمعراج فإنه ، الصلاة .

ولا يتأتى لنا - عجزًا وقصورًا - أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر على هذه النعمة التى أنعم الله بها على الأمة الإسلامية فى هذه الليلة المباركة .

فالصلاة هى : الصلة به سبحانه ، وهى الكيفية ، وهى الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق .

إنها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل - ويجبَ أن يكون كاملا - عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة . لتخلص النفس إلى المنعم حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه.

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، إن إقامة الصلاة أو إقامة الدين إنما هى : إقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك . هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة التى يجرى وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى ، وما من شك فى أن الصلاة - يقيمها الإنسان ، كما أراد الله ورسوله - من أنجع الوسائل فى القرب من الله ، إنها : البراق الذى يجتاز به المؤمن - فى سرعة سريعة - طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليصل إليه تعالى فينعم فى رحابه .

هذه الزوايا ، وغيرها : من عبر الإسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما . هى التى يجب أن نتنبه إليها ، وأن نأخذ فى تأملها والانسجام معها .

إن الله سبحانه وتعالى : أخذ يتحدث فى سورة النجم عن آفاق عليا ، وعن أجواء إلهية جليلة ، وعن مشارف من السمو ترتد

عنها الأمانى حسرى ذاهلة ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن جنة المأوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن :

رتب تسقط الأمانى حسرى

دونها ما وراءهن وراء

ثم ... ثم هوى بنا سبحانه ، فى عنف عنيف ، هوى بنا فى سرعة سريعة دون سابق إنذار ليفتح أعيننا على مهازل ومهاوى من الشرك ، يضل فيها هؤلاء الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا فقال سبحانه بعد أن ذكر هذه التجليات الإلهية :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴾ (١) .

لقد أرانا سبحانه : بهذه الكلمات : البشرية المسكينة فى ضلالها الدينى وفى انحرافها الذهنى .

إن كل من يترك هذه الآفاق العليا ، ويتجاوزها ليتحدث عن أن الرسول ﷺ أسرى بجسمه وبروحه ، أو بروحه فقط ، أو أسرى به يقظة أو مناما : إنما هو بذلك ينحدر بنفسه مختارا من التجلى الإلهى ، ليهوى بها منتكسًا إلى جو اللات والعزى ، وينحدر بها منتكسًا من جو سدرة المنتهى ، إلى الجو المادى : ومن مجالات النور السماوى الملألئ إلى ظلمة الجدل وزيغ المماراة فى الدين .

---

(١) النجم ١٩، ٢٠.

فلننصرف عنه ، ونتركه وما اختار ، مبتعدين عن الجدل مع الممارين ، ولندع الله قائلين :

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١)

* * *

---

(١) آل عمران : ٨.

الهجـــرة

يا لجلال الإيمان وثباته وقوته .!

إن التاريخ : نادرًا ما يحدثنا عن هجرة خالصة مخلصة ، لله ولرسوله، هجرة إلى مكان مجهول، هجرة لا يسأل المهاجر عما إذا كان مهجره سيستقبله مرحبًا ويؤويه فى ألفة ، أم أنه سيقابله بالجفوة والعداوة . هجرة لم يمهد لها الجو من قبل ، ولم يعبد لها المكانْ .إن التاريخ : لا يكاد يحدثنا عن الهجرة بالإيمان ومن أجل الإيمان .

ولكن التاريخ الإسلامى حافل بهذه الأنواع من الهجرة ، فإنه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الإيمان ، وكثر الحديث عنه ، ثار ناس كثيرون من المشركين من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم فعذبوهم، وسجنوهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، وتحمل المؤمنون العذاب ألوانا فى سبيل الله .

ولما استمر الأمر دون فتور ، قال لهم رسول الله ﷺ شفقة عليهم ورحمة !

« تفرقوا فى الأرض » .

فقالوا : أين نذهب يا رسول الله ؟

فأشار إليهم : إلى الحبشة ، فهاجر إليها فى بادئ الأمر طائفة من المسلمين ، منهم من هاجر مع أهله ، ومنهم من هاجر منفردًا .

وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة .

ثم قدم بعضهم إلى مكة معتقدا أن الأمور قد هدأت ، فيما بين رسول الله والمشركين ، فلما قدموا إلى مكة اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذى شديدًا .

فأذن لهم رسول الله ﷺ بالخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت هجرتهم الثانية أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفًا شديدًا ، ونالوهم بالأذى ، وقال سيدنا عثمان رضى الله عنه، مخاطبًا رسول الله ﷺ .

يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشى ولست معنا .

فقال رسول الله ﷺ هذه الكلمة المؤثرة :

« أنتم مهاجرون إلى الله وإلىَّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعًا »

قال سيدنا عثمان : « حسبنا يا رسول الله »

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، وكان عدد النساء ثمانى عشرة امرأة .

ولم يرق لقريش أن يعبد الله هؤلاء القوم آمنين مطمئنين ،

لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة ، فأرسلت وفدا من ساسة العرب الدهاة ، مزودا بالهدايا إلى النجاشي ، ليعيدوا هؤلاء الموحدين إلى مكة ، لينزلوا عليهم العذاب من جديد .

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين ﴾ (1) .

ولم يفلح الوفد وعاد إلى مكة بخفى حنين .

ولما علمت قريش بذلك ، ثارت ثائرتها ، وزاد غضبها ، وأقدمت على عمل يتنافى تنافيًا تامًا مع الإنسانية ، فقد كتبوا كتابا تعاهدوا فيه على ألا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ، ولا يخالطوهم ، وكان الكاتب للصحيفة هو ، منصور بن عكرمة العبدرى ، وكان من تقدير الله تعالى أن شلت يده .

وبهذه الصحيفة ، وهذا العهد حصروا بنى هاشم فى شعب أبى طالب .

وكان ذلك فى أول المحرم سنة سبع من نبوته صلوات الله وسلامه عليه ، واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين ، لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغ بهم الجهد مبلغا خطيرًا ، وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم يبكون جوعا ومسغبة فلا ترق قلوبهم ولا يتأثرون ، واستمر ذلك سنوات ثلاثا .

وبينما هذه الأمور ، من الشدة والقسوة ، تجرى تحت سمع

---

(1) آل عمران ٥٤.

الرسول وبصره ، وكانت قريش ترسل له صلوات الله وسلامه عليه من يعرض عليه المال والغنى والسلطان والجاه والملاذ بجميع ألوانها، على أن يترك دعوته ، فلا يجدون إلى غايتهم سبيلا .

وما ترك رسول الله ﷺ الدعوة قط ، كان يدعو ليلا ، وكان يدعو نهارا ، وكان يدعو فى كل لحظة من لحظاته ، يروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد ، وكان جاهليا أسلم يقول :

رأيت رسول الله ﷺ ببصر عينى بسوق ذى المجاز يقول : « يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » ، ويدخل فجاجها والناس منقصفون [1] عليه ، فما رأيت أحدا يقول شيئا ،وهو لا يسكت يقول :

« يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » .

أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين ، من أول نبوته مستخفيا ثم أعلن فى الرابعة ، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام ، عشر سنين ، يوافى المواسم كل عام ، يتبع الحاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ومجنة ، وذى المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه ، حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره أو تجيبه ، حتى إنه ليسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكًا فى الجنة » .

---

(١) يجتمعون ويزدحمون.

واستمر الأمر كذلك : لا يكف رسول الله ﷺ عن الدعوة إلى الله ، ولا يكف المشركون عن المعارضة والإيذاء حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته صلوات الله وسلامه عليه ، وكان الإسراء والمعراج وارتد من ارتد . وثبت من ثبت وكان حادث الإسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة ، وكان الفيصل بين طائفتين : طائفة مؤمنة ، ثابتة على إيمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ، تميد الجبال ولا تميد ؛ وطائفة مشركة ، قد أحكمت أمرها ،ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الإسلام مهما طال الزمن .

ولم يكد يعتنق الإسلام فى هذه الفترة - فترة السنوات الثلاث التى سبقت الهجرة - مشرك من أهل مكة ، وفيها ثبت المسلمون على إيمانهم ثبات أولى العزم ، كانت هذه الفترة فترة تربية للمؤمنين وصقل لهم ، وهى إن كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه : لم يكف فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات ، فإنها مع ذلك : كانت تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الإسلام ونشر دعوته :

وإذا كانت المعسكرات قد تحددت فى مكة ، كانت الفترة من الإسراء إلى هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

كانت فترة تربية وصقل وتعليم وتهذيب فإن الإسلام فى هذه الفترة . لم يكن قد وقف راكدًا ، بل العكس ، قد هيأ الله له وسيلة الانتشار خارج مكة ، لقد ضم الرسول فى معسكره المكى كل

عناصر الخير بمكة ولم يبق فيها - فى الطرف المقابل - إلا من لا ينحسم أمره عن طريق الدعوة وإنما عن طريق آخر . وما كان هناك من مناص من مغادرة مكة للعودة إليها من جديد فى ظروف مهيأة ، وبوسائل غلابة . لقد هيأ الله الأمر لانتشار الإسلام خارج مكة .

ويقول ابن سعد فى الطبقات :

«أقام رسول الله ﷺ بمكة ما أقام، يدعو القبائل إلى الله ويعرض نفسه عليهم كل سنة بمجنة، وعكاظ، ومنى، أن يأووه حتى يبلغ رسالة ربه، ولهم الجنة ، فلم تستجب له قبيلة من العرب، ويؤذى ويشتم ، حتى أراد الله إظهار دينه ونصر نبيه وإنجاز ما وعد فساقه إلى هذا الحى من الأنصار لما أراد الله بهم من الكرامة» .

وكانوا ستة نفر ، فدعاهم إليه ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن، فأسلموا ، ووعدوه أن يلتقوا به فى العام القادم.

ولما عادوا إلى المدينة ، بشروا بالإسلام فى قومهم فأسلم من أسلم وكثر فى المدينة الحديث عن الإسلام .

فلما كان العام الذى يليه حضر اثنا عشر رجلا ، فبايعوا الرسول - كما تحدثوا بذلك عن أنفسهم - : « على ألا نشرك بالله شيئًا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف » .

قال : « فإن وفيتم فلكم الجنة ، ومن غشى من ذلك شيئًا كان أمره إلى الله : إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه » .

إن هذه البيعة بيعة فضيلة وخير . إنها بيعة على العمل بالمثل الأخلاقية العليا ونشرها .

وانظر إلى الدقة فى قوله ولا نعصيه فى معروف . إنه لم يقل : ولا نعصيه ويسكت ، وإنما قيد ذلك بقوله : « فى معروف » وحاول أن تتأمل وثيقة البيعة هذه ، فستقر - لا مناص - بأنها وثيقة إلهية .

وعاد المسلمون إلى المدينة بأخلاق أخرى . ووجوه عليها نور الإسلام وبقلوب انغمست فى محيط الرحمة ، وأخذوا يدعون إلى الله مبشرين ومنذرين .

ثم عادوا فى العام التالى وهم سبعون أو يزيديون رجلا أو رجلين ومعهم امرأتان ، والتقوا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ومعه العباس بن عبد المطلب ، ليس معه أحد غيره .

قال أسعد بن زرارة : فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمدًا إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس فى عشيرته ، يمنعه والله منا من كان على قوله ، ومن لم يكن منا على قوله ، يمنعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، ترميكم عن

قوس واحدة ، فارتأوا رأيكم ، وأتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه .

فقال البراء بن معرور : قد سمعنا ما قلت ، وإنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول ﷺ .

وقال : وتلا رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، ثم دعاهم إلى الله ورغبهم فى الإسلام وذكر الذى اجتمعوا له .

فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ، ثم قال : يا رسول الله : بايعنا فنحن أهل الحلقة [1] ورثناها كابر عن كابر .

فقال العباس بن عبد المطلب وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ : اخفوا جرسكم [2] ، فإن علينا عيونًا، وقدموا ذوى أسنانكم، فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم ، فإنا نخاف قومكم عليكم ، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم .

فتكلم البراء بن معرور ، فأجاب العباس بن عبد المطلب ، ثم قال : ابسط يدك يا رسول الله .

فكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ فيما يقال - : البراء بن معرور .

---

(١) أهل السلاح. (٢) كلامكم وصوتكم.

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه ، فقال رسول الله ﷺ « إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبًا ، فلا يجدن أحد منكم فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لى جبريل » .

فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى » .

قالوا : نعم ...

فقال رسول الله ﷺ « انفضوا إلى رحالكم » .

فقال العباس بن عبادة بن نضلة : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا ، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره .

فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نؤمر بذلك ، فانفضوا إلى رحالكم .

ولما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعة وقوما ، أهل حرب وعدة ونجدة .

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، فلما ضاقوا بالأمر ذرعًا ، شكوا إلى رسول الله ﷺ واستأذنوه فى الهجرة ، فقال لهم : « قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهى : « يثرب » فمن أراد الخروج فليخرج إليها ».

وأخذ المسلمون يهاجرون سرًا ، بادية عليهم آثار تربية

الرسول ﷺ من الثقة بالله ، والصبر ، وتحمل المشاق فى سبيل دينهم ، وتوطين النفس على أن يكونوا فى جميع أحوالهم ، من جنود الله ، مهاجرين إليه للعمل على إعلاء كلمته ، ونشر دينه ، ولو كره الكافرون .

وما كانت الهجرة قط فى نظر الرسول ﷺ ، ولا فى نظر أصحابه ركونًا إلى الدعة والهدوء ، أو ميلا إلى الراحة والسكون .

وإنما كانت ، محاولة مصممة على قيادة المعركة فى سبيل الله من جهة أخرى .

وأخذ المسلمون يهاجرون إلى الله ورسوله ، يهاجرون سرًا ، جماعات أو فرادى ، حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعلى رضى الله عنهما، أو مريض ، أو عاجز عن الخروج.

وعندئذ آن لرسول الله ﷺ أن يهاجر .

ها هو ذا رسول الله ﷺ على مشارف مكة ، ينظر إليها على أمل واثق من أنه سيعود إليها مبشرًا بدين الله عاملا أن يعم كل بيت فيها .

ولما أوشكت أن تغيب عن بصره ، ودَّعها بهذه الكلمات المؤثرة.

« والله إنك لأحب البلاد إلى نفسى ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت » .

ثم مضى هو والصديق إلى غار ثور فدخلاه ، ولما علم المشركون بالأمر ، ثارت ثائرتهم ، ووطنوا العزم على ألا يفلت المهاجران إلى الله من تنكيلهم .

لقد كانوا قد دبروا قتل الرسول ﷺ وما كانوا يبالون قط بقتل رجل أن يقول ربى الله .

ولقد كانوا أحكموا التدبير لقتله قبل أن يخرج ، ووضع مشروع المؤامرة أبو جهل - عليه لعنة الله - وعرضها على الوضع التالى :

أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلامًا ، نهدًا ، جلدًا ، ثم نعطيه سيفًا صارمًا ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف الوقوف فى وجه القبائل جميعها ، فيقبلوا الدية فنعطيهم إياها .

﴿ ومكرُوا ومكرَ اللَّهُ واللَّهُ خيْرُ الْماكرِينَ ﴾ (١) .

دخل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو وأبو بكر الغار مختفين ، وكان سيدنا أبو بكر حزينًا ، خوفًا على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فجاء النداء الإلهى على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يملؤه ثقة وتفاؤلا :

﴿ لا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران ٥٤.   (٢) التوبة : ٤٠.

ولما سمع سيدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الغار وأصواتهم الصاخبة التى تعلن عن سخطهم وغيظهم المكبوت قال : **لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرنا ، ويبتسم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ويقول : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟**

ولما انتهى الطلب وعاد المشركون من حيث أتوا خرج رسول الله ﷺ هو ورفيقه ، وكان خروجهما من الغار ليلة الاثنين لأربع ليالٍ خلون من شهر ربيع الأول .

وبينما هما فى الطريق لحق بهما سراقة بن مالك مدججًا بالسلاح على فرس تسابق الريح ، ليأسرهم حتى يفوز بالجائزه التى وعد بها المشركون من يأتى بالرسول ﷺ قتيلا أو أسيرًا .

فلما دنا منهما دعا عليه رسول الله ﷺ فساخت قوائم فرسه فقال : يا محمد ، ادع الله أن يطلق فرسى وأرجع عنك وأرد من ورائى ، ففعل فأطلق ورجع فوجد الناس يلتمسون رسول الله ﷺ فقال : ارجعوا فقد استبرأت لكم ما ها هنا . وقد عرفتم بصرى بالأثر . فرجعوا عنه .

وسار الركب تحفه رعاية الله وعنايته ، حتى وصل إلى المدينة ، حيث استقبل بـ :

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

أيهـا المبـعـوث فـينا
جـئت بالأمـر المطاع

وكان من أوائل الأعمال التى قام بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى المدينة :

١ - بناء المسجد : المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم .

٢ - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تحقيقًا لمبدأ من الدين الإسلامى ، يتمثل فى قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [١].

ويح قوم جفوا نبيًا بأرض
ألفته ضبابها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه
وقلوه ووده الغرباء
أخرجوه منها وآواه غار
وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت
ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآه
ومن شدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتاقت
إليه من مكة الأنحاء

(١) الحجرات : ١٠ .

الهجــرة مــن زاويـــة أخــرى

الهجرة حقيقة تاريخية ، ورمز جميل ، يعبر تعبيرا عما يجب أن يكون عليه المسلم فى كل فترة من فترات حياته ، بل فى كل نفس من أنفاسه ، ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمز عن الهجرة الروحية ، عن الهجرة التى لا ترتبط بزمان ولا بمكان ، والهجرة بهذا المعنى الذى يتجاوز الواقع التاريخى ويتجاوز الزمان والمكان ، قد وردت فى الأحاديث النبوية الشريفة ، وفى القرآن الكريم .

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه البخارى رضى الله عنه : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » . هذا المعنى الروحى نتبينه فى وضوح سافر فيما يلى :

يقول الله تعالى :

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

(١) التوبة : ٤٠.

في هذه الآية الكريمة : يصور الله تعالى ، إخراج الكفار للرسول صلوات الله وسلامه عليه من مكة ، وهجرته مستخفيًا في جنح من الليل مفارقًا البلدة التي ولد بها . والتي بها عشيرته وقومه إلى بلدة يجد فيها حرية الدعوة إلى الله .

يصور الله ذلك بأنه انتصار ، ومن الطريف أن الله تعالى ، يصوره بأنه انتصار في الوقت الذي كان فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مختبئًا في الغار هو والصديق رضوان الله عليه ، والمشركون بخيلهم ورجلهم وعدتهم وعتادهم منتشرون في كل مكان يبحثون عنهما جاهدين للتنكيل بهما .

وما من شك في أن الهجرة كانت انتصارًا مبينًا : لأنها فرار إلى الله ، والفرار إلى الله انتصار ، حتى ولو انتهى بالموت أو القتل: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١) .

ونحن مأمورون بالفرار إلى الله ، أي بالهجرة إليه : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢) ، وسيدنا إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (٤) .

---

(١) الحج : ٥٨.
(٢) الذاريات ٥٠.
(٣) العنكبوت ٢٦ .
(٤) الصافات ٩٩.

والفرار إلى الله ، والهجرة إليه ، والذهاب إليه ، من صفات المؤمنين الصادقين : إنهم يفرون إلى الله ويهاجرون إليه يوميًا : فهو هدفهم وغايتهم فى جميع أعمالهم ، وإذا كانت هجرة بعض الناس إنما هى إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرة المؤمن الصادق خالصة لله وحده ، متمحضة لوجهه الكريم ، وإذا ما كانت كذلك كان الله معه ، يقول صلوات الله وسلامه عليه للصديق .

« لا تحزن إن الله معنا » ذلك أن هجرتهما كانت لله رب العالمين ، لا شريك له . ومن كان كذلك فإن الله ينزل عليه السكينة ، أى طمأنينة النفس والرضا ويؤيده بجنود لا تراها الأعين : فيدخله فى نطاق رعايته ، ويشمله بجميل عنايته ، ويضفى عليه من توفيقه ورضاه ما يجعله قرير النفس ، هادئ البال سعيدًا ولو ألقى فى النار لأنه سوف لا يشعر بها إلا بردًا وسلامًا .

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة إليه تعالى .

وأول مرحلة فى سبيل الهجرة إليه سبحانه إنما هى النية الخالصة لوجهه الكريم ، يقول صلوات الله وسلامه عليه :

«إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

فإذا ما توجهت النية بالأعمال إلى الله تعالى كانت الأعمال هجرة إليه ، أما إذا لم تتوجه النية إليه ، فإن الأعمال - ولو كانت خيرًا فى ظاهرها - تكون هباء منثورًا .

ومن هنا يتبين للمؤمنين حقا فساد الأفكار التى يروجها الحائدون عن النهج الدينى الصحيح من أمثال قولهم : إن العلم للعلم ، أو الفن للفن ، أو الخير للخير ؛ لإرضاء الضمير؛ إن كل ذلك يدل على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة ، وهو أيضا خطر على المجتمع ؛ لأن العلم والفن إذا لم يتجه بهما أصحابهما إلى الله - أسسًا وغايات - انحرفت بهما الإرادات والنيات إلى الشر والإفساد : فشقيت بهما الإنسانية بدل أن تسعد .

أما الخير فإن معرفته معرفة حقيقية لا تتأتى إلا عن طريق الدين وقد حاولت العقول - مستقلة عن الدين - تحديده فتعارضت وتضاربت ولم تصل إلى نتائج .

والمؤمن إذن يهاجر إلى الله بعلمه ، ويهاجر إليه بفنه ، ويهاجر إليه بعمله الخير .

على أن العبادات الإسلامية على تعددها واختلافها ، إنما هى تنسيق وتنظيم لأنواع وألوان من الهجرة إلى الله تسمو بالمؤمن صعدا إلى الصلة بالله ،وإلى النعيم فى رضوانه ، وإلى السعادة فى رحابه ؛ فالصلاة فرار من البيئة والجو والمادة إلى الوقوف بين يدى الله ومناجاته لحظة من الزمن - فهى هجرة إلى الله .

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقربًا إلى الله فهى ذهاب إليه .

والصوم ابتعاد عن المادة فترة من الزمن ، تزكية للنفس وقربى إلى الله فهو ذهاب إليه .

أما مناسك الحج فإنها صور من التجرد لله بلغت الذروة والسنام ، وتبلورت فى النداء الروحى الكريم : « لبيك اللهم لبيك ».

وختامًا : فإن الصورة التامة الكاملة للهجرة الإسلامية الكبرى إنما تتمثل فى أروع مظاهرها فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (1) .

يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » جهاد فى كل ميادين الجهاد ، ونية خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله .

فإلى هذه الهجرة الكبرى أيها الإخوة المؤمنون فإن فيها الخير كله .

وبالله التوفيق .

* * *

---

(1) الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣.

الجهـــاد

إن رسول الله ﷺ الذى كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه والذى كان فى كثير من الأحيان يواصل فى الصيام، هو الذى يقول: « والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » .

وهو القائل : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

إن النبى العابد هو : النبى المكافح : وإن نبى الرحمة : هو نبى الجهاد ؛ وما كان الجهاد قط فى الإسلام ، إلا فى سبيل الله ، فإذا ما خرج عن سبيل الله ، لم يكن إسلاميًا ، وكل ما فى سبيل الله : إنما هو رحمة .

وليس من شأننا ، أن نتحدث عن الغزوات سردًا وترتيبًا وتفصيلا ، وإنما نذكر منها عبرًا ، حتى ننتهى إلى فتح مكة .

وأول ملاحظة : هى أن الرسول العابد ﷺ : لم يتراجع فى غزوة قط ، وكان الأبطال يتراجعون، والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرون أحيانًا ، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه يثبت ثبات الجبال الراسيات: لا يتزحزح عن موقفه ، ولا يزول عن مكانه،

وقد ثبت فى مكانه فى غزوة أحد التى غلب فيها المسلمون ، وكان المشركون فيها يودون بكل ما استطاعوا أن يقضوا عليه صلوات الله وسلامه عليه .

ووقف ثابتًا فى غزوة حنين ، وقد فر المسلمون ، على كثرتهم إذ ذاك ، وكيف يمكن لأكمل رجل فى الوجود أن يفر وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته ؟

ولقد كان واضحًا فيه صلوات الله وسلامه عليه ما يقوله سيدنا على وهو من هو - - بطولة وفروسية - : « كنا إذا حمى الوطيس (أى الحرب) : اتقينا برسول الله: ﷺ أى احتمينا به وفيه، فيكون أقربنا إلى العدو » .

وكان صلوات الله وسلامه عليه مع التجائه إلى الله تعالى . يدعوه ويستغيث به ، ويستنجزه بالنصر : يحكم الأمر إحكامًا ، بحيث لا يدع فيه ثغرة : هكذا كان أمره فى جميع أموره ، لقد نظم الجيش فى غزوة بدر تنظيمًا محكمًا ثم اتجه إلى الله يدعوه ، وكان دائمًا متفائلا ، كان متفائلا حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين .

لقد كان المشركون فى غزوة بدر : ثلاثة أمثال المسلمين ، فهزمهم المسلمون بإذن الله .

وكان انهزام المسلمين فى غزوة أحد : شذوذًا فى القاعدة ، وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا - متأولين - أوامر الرسول ﷺ ، غير

أن تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه : لم يفارقه لحظة ؛ إذ إنه بعد أن انهزم المسلمون فى غزوة أحد مباشرة ، أمرهم صلوات الله وسلامه عليه ، **بلم شعثهم وتضميد جراحهم ، والاستعداد فورًا ، لخوض المعركة من جديد .**

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه ، أنه فى غزوة الأحزاب ، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة ؛ يسانده اليهود والغادرون ليقضوا على الإسلام فى المدينة ، ليقضوا عليه دينًا ، وليقضوا عليه دولة ، ليقضوا عليه عقيدة ، وليقضوا عليه رجالا .

وقد كان المسلمون : يعملون فى حفر الخندق حماية لهم ، ومنعًا من وصول العدو إليهم فى هذه اللحظة الحرجة : يروى البراء بن عازب رضى الله عنه : **القصة التالية ، حسبما رواه الإمام أحمد .**

« أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق ، فعرضت لنا صخرة فى مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول فشكونا إلى رسول الله ﷺ فجاء ثم هبط إلى الصخرة ، فأخذ المعول وقال : باسم الله ، **فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ؛ والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكانى هذا ، ثم قال** باسم الله ، وضرب أخرى ، فكسر ثلث الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر المدائن ؛ وأبصر قصرها الأبيض من مكانى هذا . ثم قال : باسم الله وضرب ضربة أخرى

فقلع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى هذا » .

وأشاع هذا التفاؤل : الثقة والاطمئنان فى المسلمين وإن كان قد دعا إلى السخرية فى وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا : إن محمدًا يعدهم ويمنيهم وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن .

هذا التفاؤل وهذه الثقة فى الله لم تفارق الرسول قط فى كفاحه الطويل الدائب الذى استمر إلى نهاية حياته الشريفة .

وغزوة فتح مكة ترتبط بآيات مباركات هى :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (١) .

إن آيات الفتح هذه - نزلت فى أثناء عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، نزلت تسلية للمسلمين ، وقد حزنوا لصدهم عن دخول مكة حاجين معتمرين ، مع أنهم كانوا على أبوابها ، وقد نزلت تشير إلى فتح مكة وتبشر به ، ولقد أوحاها الله إلى رسوله ليلا ، فلما أصبح صلوات الله وسلامه عليه قال : لقد نزلت على الليلة سورة : هى أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ قوله تعالى :

---

(١) الفتح ١، ٢، ٣.

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ .

وهذه الآيات الكريمة : لا تكاد تبين عن فتح مادى حربى وإنما هى تشير - على الخصوص - إلى الآفاق العليا من الرضوان الإلهى . إنها وثيقة تسجيل الثقة المطلقة التى شملت الماضى ، والحاضر والمستقبل ، والتى سمت بالرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى مستوى الرضا عن كل ما يأتى وما يدع .

إنها بشرى من الله بفتح مبين وغفران شامل وإتمام كامل للنعمة وهداية وقيادة دائمة مستمرة ونصر عزيز : وهذه منح إلهية عامة ، لا تفسر بالماديات وحسب ، وإنما تفسر أيضًا ، ومن باب أولى ، بالمعانى الروحية فى أسمى صور التجليات الإلهية - اللهم لك الحمد والشكر - ولذلك فإننا حينما نتحدث عن فتح مكة ، لا تحتل المسائل الحربية المكانة الأولى من الموضوع ، وإنما الذى يحتل ذلك إنما هو المثل العليا : من الصور الأخلاقية النبوية ، والسمو النفسانى ، الممثل فى الرحمة المهداة من الله تعالى إلى الإنسانية : أى فى سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ومهما يكن من شىء ، فإن قريشًا ، نقضت عهد الحديبية ، الذى كان يفرض الهدنة بينها وبين رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وكانت الفرصة مواتية لأن يركز الله تفكير رسوله ﷺ فى أمر قريش :

أما آن لقريش ، أن تسلم وجهها لله ، وأن توحده ولا تشرك به شيئًا ؟

(إن الشرك لظلم عظيم) .

أما آن لقلوبهم أن تخشع لذكر الله وما نزل من الحق ؟.

لقد دعا سيدنا إبراهيم- في رحاب مكة- ربه مبتهلا ضارعًا قائلاً .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

وها هو ذا الرسول ﷺ قد بعثه الله إليهم بالهدى السماوى ، فهل استجابت قريش لهدى السماء ؟

وهذا البيت العتيق ، الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل قائلين :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

هذا البيت الذى عهد الله لإبراهيم وإسماعيل ، أن يطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

هذا البيت : قد احتلته الأصنام ، والتفت حوله ، وارتفعت على جوانبه معلنة - فى وقاحة سافرة - الشرك بالله .

---

(١) البقرة ١٢٩.　　(٢) البقرة ١٢٧.

لابد من تحطيم الأصنام ، وتطهير البيت ، لابد من أن تسلم قريش وجهها إلى الله .

وصمم رسول الله ﷺ فى عزم لا يلين ، على أن يمحو الشرك وآثاره من معقله الحصين : - أعنى مكة - وأن يطهر البيت من جديد للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود ، وعبثا حاول أبو سفيان الذى أرسلته قريش سفيرًا بينها وبين الرسول - أن يجدد العهد الذى نقضته قريش ، ولم يجد أبو سفيان - رغم دهائه ولباقته - عونًا من أحد ، حتى ولا من ابنته أم حبيبة زوجة رسول الله ﷺ ، التى بلغ بها النفور من الشرك ، أن طوت فراش رسول الله ﷺ حتى لا يجلس عليه أبوها - زعيم المشركين وحامى الشرك فى مكة - فلما سألها مستفسرًا أرغبت به عن الفراش أم رغبت بالفراش عنه ، قالت : هو فراش رسول الله ، وأنت مشرك نجس ، فانصرف مغضبًا قائلا : «والله لقد أصابك من بعدى شر» وأخطأ أبو سفيان فما أصابها شر ، ولكنها كراهية الشرك.

وهيأ رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - القوى وحرج يوم الأربعاء بعد العصر لعشر ليال خلون من شهر رمضان ، سنة ثمان من الهجرة ، حتى إذا كان بالكديد ، واجتمع الناس إليه : أخذ إناء فشرب منه ثم قال : « أيها الناس من قبل الرخصة ، فإن رسول الله ﷺ قبلها ، ومن صام فإن رسول الله ﷺ صام » [1] .

(١) هذه قاعدة وضعها سيدنا رسول الله ﷺ ليقاس عليها حالة الجيش الإسلامى فى حروبه أيام رمضان.

حتى إذا بلغ - صلوات الله وسلامه عليه - « مر الظهران » وهو مكان - بالقرب من مكة - أمر الجيش بالإفطار لأنه فيما يبدو يوشك أن يخوض المعركة الفاصلة بين الشرك والإيمان .

وعسكر الجيش فى مر الظهران ، ولما رآه أبو سفيان وكان قد أسلم منذ ساعات ، قال بعقليته الجاهلية للعباس : يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما ، فقال العباس ، بعقليته الإسلامية : ويحك إنه ليس بملك ، ولكنها نبوة ، قال أبو سفيان : فنعم ، وتوجه رسول الله نحو مكة محذرًا من إراقة الدماء، ولما قال سعد بن عبادة وهو أحد قادة الجيش : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة » عزله النبى ﷺ فقد كان رسول الله ﷺ يريد أن يكون يوم المرحمة .

ودخل رسول الله ﷺ مكة دون مشقة : وكان أول ما فعل أن طاف بالبيت سبعا ، ودخل البيت ، فرأى فيه صور الملائكة بهيئة النساء ، ورأى إبراهيم عليه السلام ، مصورًا فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ما شأن إبراهيم والأزلام ؟

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران ٦٧.

وأمر بطمس الصور كلها ؛ واتجه إلى الأصنام ، فحطمها مرددًا قوله تعالى :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (١) .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد حطم الأصنام المادية ، فإنه من قبل ذلك ومن بعد ذلك : قد حطم كل صنم يعبد من دون الله ، وبين أن الرياء شرك ، والهوى شرك ، والخضوع للشهوات شرك ، وكل عمل لا يقصد الإنسان به وجه الله ، فإنما هو من أعمال الشرك ، وفى هذا اليوم تملكت أريحية العفو رسول الله ﷺ .

فإنه ، حينما اجتمعت قريش إليه ، نظر إليهم وقال : « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » فقالوا : خيرًا أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال وهو يبكى : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

أقول لكم ما قاله أخى يوسف لإخوته :

﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢).

فكان هذا اليوم حقا يوم المرحمة .

وبالله التوفيق .

---

(١) الإسراء ٨١.　　　(٢) يوسف ٩٢.

النّبى العَابد

ألف النسك والعبادة

والخلوة طفلا وهكذا النجباء

وإذا حلت الهداية قلبا

نشطت فى العبادة الأعضاء

إن أول آية نزلت من القرآن الكريم إنما هى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (1) . ولقد كانت هذه الآية الكريمة بوضعها ، ومفهومها وجوها - شعارًا عامًا وتوجيها شاملا، فما كانت تعنى بروحها ، القراءة فحسب ، وإنما كانت تعنى : أنه - منذ هذه اللحظة - يجب أن يكون كل أمر باسم الله : فعلا كان هذا الأمر أو تركا .

ولقد تأكد هذا الاتجاه وأصبح سافرًا فيما بعد ، لقد أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم ؛ يقول الله تعالى لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (2) .

(1) العلق : 1.

(2) الأنعام 162 ، 163.

على أن المسألة : أشمل من ذلك وأعم ؛إذا كان يتأتى الشمول والعموم بعد هذا .

إن الله سبحانه قد أخبر فى قرآنه الكريم : أنه ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة ، يقول سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [1] .

فغاية الخلق العبادة ، وسبب الخلق العبادة ، والثمرة التى يجب أن يعمل الإنسان على تحقيقها إذن إنما هى : العبادة ، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة.

﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا * وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [2] .

﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [3] .

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [4] .

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [5] .

---

(١) الذاريات ٥٦. (٢) الإسراء ٧٨، ٧٩ ، ٨٠.

(٣) العلق ١٩. (٤) الحجر ٩٩.

(٥) الطور ٤٨ ، ٤٩.

وما من شك فى أن الله سبحانه لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة، إنه سبحانه الغنى المطلق ، والفاتح المطلق ، والمعطى المطلق ؛ إنه سبحانه الوهاب، الرزاق ، المغنى ، إنه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج.

وما كانت العبادة إلا لأجل تكميل الإنسان ، فمن فضل الله على عباده ، أن فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة، ففائدة العبادة راجعة إلى العابد نفسه، فضلاً من الله ورحمة، إنها راجعة إليه فى الدنيا؛ وراجعة إليه فى الآخرة ، ويشمل الوجهين قوله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

ومن عناية الله بالأمة الإسلامية، وبرسوله الكريم: أن أول كلمات من الوحى : كانت توجيهًا للرسول وللمسلمين، بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ، لأن ما كان باسم الله كان عبادة ، ولو كان أكلا أو شربًا مثلاً .

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه لهذا التوجيه السامى الذى توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ، واستمر طيلة الوحى.

---

(١) النحل ٩٧ .

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه حينما فاجأه الوحى ، فعاد يرجف فؤاده إلى منزله الطاهر وقال : « زملونى : زملونى » ، نزل عليه قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [1].

لم يقل له سبحانه : يا أيها المزمل لا تخش بأسًا ، أو يا أيها المزمل لا ترع ، فإن ذلك من عند الله، وإنما كان الرد على رجفة الفؤاد : أمرًا بالعبادة .

وكذلك الشأن فى كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب أمر بالعبادة مثل :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [2].

وهنا علق سبحانه الرضى ، وطمأنينة النفس، وسكينة الفؤاد على التسبيح ، والذكر ، والعبادة، ويشير الله إلى ذلك أيضاً فيقول:

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [3].

---

(١) المزمل ١، ٢، ٣، ٤.　　(٢) طه ١٣٠.

(٣) ق ٣٩، ٤٠.

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه استجابة كاملة، للتوجيه الإلهى : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ؛ إذ إنه كان يعملها باسم الله ؛ لقد جعل صلاته ، ونسكه ، وجعل حياته بأكملها، بل ومماته أيضاً لله رب العالمين، لقد جعل كلامه ، وصمته ، وجعل حركته وسكونه ، وجعل نومه ويقظته ، بل جعل أنفاسه عبادة لله سبحانه ، فكان ذلك توجهًا به إلى الله فكان عبادة له . وهذه الاستجابة الكاملة هى التى جعلت من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أول المسلمين.

أولهم منذ أن خلق الله العالم إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها باعتبار أن الدين عند الله - منذ الأزل إلى الأبد - إنما هو : الإسلام.

لقد صير الرسول صلوات الله وسلامه عليه الحياة كلها عبادة لا تفتر .

وإذا ما استحالت إلى عبادة ، فقد استحالت إلى قوة، أرأيت حينما نجعل من الجهاد عبادة، ومن العمل عبادة ، ومن العلم عبادة ومن الكفاح عبادة، ومن السعى على المعاش عبادة، ومن ، ومن ... هل يضعف المجتمع أم يقوى ؟ ، وهل يأمن أهله أم يخافون ؟ وهل يسعدون أم يشقون ؟.

ومهما يكن من شىء، فقد استجاب الرسول صلوات الله

وسلامه عليه استجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى ، ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذاكراً لها ، فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ﴾ (١).

ونذكر الآن بعض الأحاديث التى تصور هذا الجانب من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ومن وراء إيضاح هذا الجانب من حياته صلوات الله وسلامه عليه أهداف :

١ - تأسى المسلمين به قدر الاستطاعة.

٢ - رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة، من الناحية النفسية ، فليس هناك علاج للشك والحيرة والتردد يعادل فى نفاسته العبادة والنصيحة المجربة التى تسدى للشاك إنما هى « صل ».

فالصلاة خير علاج للاضطراب الدينى ، بل للاضطراب النفسى أيا كان .

ومتى وجدت النفس المطمئنة - والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها إلا بالعبادة - فإن الكثير من الأمراض الجسمية نفسها يزول بإقرار أطباء الأجسام أنفسهم، ثم إنه - بإقرار أطباء الأجسام أيضاً - لا يكون الإنسان المطمئن عرضة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض جسمية .

---

(١) المزمل ٢٠ .

٣ - وهذه الأسوة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه التى نرجوها : ستكون أيضاً سبباً فى تفريج الضيق المادي.

﴿ ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (١).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

وهذه الأحاديث التى نذكرها لا يوجد فيها حديث ضعيف، ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها فى فضائل الأعمال، فإنا قد تحرينا تحريًا كاملاً ألاَّ نذكر فيما يلى - إلى آخر الكتاب - حديثًا ضعيفًا .

* * *

---

(١) الأعراف ٩٦ .

(٢) النحل ٩٧ .

الصـــــلاة

عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه .

فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟.

قال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً »؟!

أما عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد قال :

صليت مع النبى ﷺ ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء .

قيل : وما هممت به !

قال : هممت أن أجلس « وأدعه ».

ولعل لابن مسعود رضى الله عنه عذره ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يقرأ فى الركعة الأولى مثلاً : سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران ، وفى الثالثة سورة النساء ، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع ، ويطيل السجود . كان يطيل كل ذلك ، حينما

كان يفعله منفرداً فى جوف الليل . أما إذا كان مع الناس فإنه يخفف.

وقد ورد فى السنة الصحيحة : إطالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه القراءة فى الركعات التى يصليها فى الليل ، وبسبب هذه الإطالة : كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى عشرة ركعة .

« عن عائشة رضى الله عنها : كان النبى ﷺ : يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجىء المؤذن فيؤذنه» ا.

وكان الرسول ﷺ : يستغرق فى صلاته الليلية ويبكى .

ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال :

« أتيت النبى ﷺ وهو يصلى ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل » يعنى يبكى .

وللصلاة أهمية كبرى يوضحها الرسول صلوات الله وسلامه عليه بقوله :

« إن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة ».

وكان صلوات الله وسلامه عليه يتوضأ لكل صلاة .

عن أنس رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله ﷺ : يتوضأ لكل صلاة » .

قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟ قال : يجزى أحدنا الوضوء ما لم يحدث ».

والأحاديث التالية : تبين بعض أحوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى الصلاة : كان عند الإقامة يقول :

« أقامها الله وأدامها ».

« وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة طأطأ رأسه ».

قالت عائشة رضى الله عنها : (لم يكن ﷺ على شىء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر).

عن سماك بن حرب قال : (قلت لجابر بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ! قال : نعم كثيراً ، كان لا يقوم من مصلاه الذى يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام) .

(وكان ﷺ يدخل فى الصلاة ، فيريد إطالتها فيسمع بكاء الصبى ، فيتجوز فى صلاته مخافة أن يشق على أمه).

(وكان ﷺ يقرأ بسورة « الجمعة » فى الركعة الأولى وبـ «إذا جاءك المنافقون » فى الثانية .

عن جبير بن مطعم قال : « سمعت رسول الله ﷺ . يقرأ فى المغرب بـ « الطور ».

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ فى المغرب بـ «والمرسلات عرفا» وإنها لآخر ما سمعته من رسول الله ﷺ.

(وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : « ما أخذت «ق والقرآن المجيد » إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس).

كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ فى صبح الجمعة : «ألم تنزيل » السجدة ، و « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » رواه الشيخان .

من حديث أبى هريرة ، وإنما كان يقرؤهما كاملتين ، وقراءة بعضهما خلاف السنة .

« كان ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة بـ « سبح اسم ربك الأعلى » و « هل أتاك حديث الغاشية ».

وكان « يكثر أن يقول ، فى ركوعه وسجوده ، : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى ».

« وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يقول بين التشهد والتسليم، اللهم اغفرلى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت ».

« وفى السجود يقول صلوات الله وسلامه عليه : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ».

« وعن حذيفة ، كان يقول ﷺ فى ركوعه : سبحان ربى العظيم ، وفى السجود ، سبحان ربى الأعلى ».

« عن عائشة رضى الله عنها : كان ﷺ يكثر أن يقول ، فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن » .

رواه مسلم ، **ومعنى يتأول القرآن : يعمل بما أمر به كما فى قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [1] فكان ﷺ ، يقول هذا الكلام البديع فى الجزالة المستوفى ما أمر به فى الآية ».**

* * *

(١) النصر ٣.

الصـــــيام

أما إذا جئنا إلى رمضان ، وإلى الصيام ، على وجه العموم فالأحاديث التالية : توضح بعض الأمر : كما أن أحاديث الصلاة التى رويناها ، إنما بينت إشارات ولمحات فقط ، فكذلك الأمر فى أحاديث الصيام.

فرض رمضان فى السنة الثالثة من الهجرة فتوفى سيدنا رسول الله ﷺ ، وقد صام تسعة رمضانات.

عن عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ : إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله وجد وشد المئزر ».

وعنها قالت : « كان ﷺ يجتهد فى رمضان ما لا يجتهد فى غيره ، وفى العشر الأخير ما لا يجتهد فى غيره ».

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله تعالى ».

« كان النبى ﷺ يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً ».

« إذا دخل العشر الأخير طوى فراشه واعتزل النساء واغتسل بين الأذانين ، وجعل العشاء سحورا ».

« روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه صلوات الله وسلامه عليه واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم ، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا ، قالوا : إنك تواصل ، قال : لست كهيئتكم إنى أظل أطعم وأسقى ».

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ لا يفطر الأيام البيض فى حضر ولا سفر ، وهى ثلاث عشرة، وأربع عشرة ، وخمس عشرة » .

وعن حفصة رضى الله عنها : « أربع لم يكن النبى ﷺ يدعهن . صيام عاشوراء ، والعشر - أى تسع ذى الحجة - والأيام البيض من كل شهر : وركعتا الفجر ».

« كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتحرى صيام يوم الاثنين والخميس ».

« كان النبى صلوات الله وسلامه عليه ، يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر ».

* * *

ومن العبادة الذكر

« لا يقعد قوم ، يذكرون الله ، إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده ».

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان صلوات الله وسلامه عليه . يذكر الله على كل أحيانه ».

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره : مثل الحى والميت ». وأفضل الذكر قراءة القرآن .

« ومن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول : « آلم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .

« إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن : كالبيت الخراب».

« اقرءوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وبينما جبريل عليه السلام ، قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم

ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض، ولم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبى قبلك : « فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » .

ولأن لا إله إلا الله : أساس التوحيد ، وتعبير عن التوحيد ، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها فى القرآن على أنحاء شتى قال صلوات الله وسلامه عليه :

« **أفضل الذكر لا إله إلا الله** ».

عن أبى موسى رضى الله عنه قال « قال لى رسول الله ﷺ : الا ادلك على كنز من كنوز الجنة ؟ ».

فقلت : بلى يا رسول الله.

قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ».

« قال رسول الله ﷺ : لقيت إبراهيم ﷺ ، ليلة أسرى بى ، فقال : يا محمد أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة : طيبة التربة ، عذبة الماء، وأنها قيعان ، وأن غرسها : سبحان الله ، والحمد لله، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ».

« وكان ﷺ يقول بأعلى صوته : **لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ،**

وله الثناء الحسن الجميل ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » .

« ومن قال لا إله إلا الله وحده، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه » .

وقال : « من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر ».

« إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى ، عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء ، فإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله ، قال الشيطان . أدركتم المبيت . وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء » :

« الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله، تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو : فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

« إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده ».

« لأن أقـول : سـبـحــان الله ، والحـمـد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ».

« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ».

* * *

الدعـــــاء

وقال صلوات الله عليه وسلامه : « الدعاء هو العبادة » .

أما أحسن أوقات الدعاء فإن الأحاديث التالية تذكر بعضها:

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم» .

قيل لرسول الله ﷺ : أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبة ».

« دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب : مستجابة ، وعند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين، ولك بمثل».

« لا يزال يستجاب للعبد ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل، قيل : يا رسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم أره يستجيب لى ، فيستحصر عند ذلك ويترك الدعاء » .

« ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى ، بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه من السوء مثلها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » فقال رجل من القوم : إذن نكثر ، قال : « الله أكثر » .

« كان ﷺ ، يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك ».

ومن جوامع دعائه ما يلى :

أتاه رجل فقال : يا رسول الله ، كيف أقول ، حين أسأل ربى؟.

قال : « اللهم اغفر لى وارحمنى ، وعافنى ، وارزقنى ، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك »

ومن جوامعه ﷺ :

« اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة، والنجاة من النار ».

عن أبى **أمامة رضى الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ ، بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً.**

قلت : يا رسول **الله دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً؟**

فقال : **ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله ؟.** تقول : اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ، **ونعوذ** بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنت المستعان ، وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا بك » أ . هـ .

« اللهم إنى أعوذ بك ، من منكرات الأخلاق ، والأعمال ، والأهواء ».

« اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى »

عن شهر بن حوشب قال : « قلت لأم سلمة رضى الله عنها : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذ كان عندك ؟.

قالت : كان أكثر دعائه : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » أ . هـ.

« اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى . وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى ؛ واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير ، واجعل الموت راحة لى من كل شر ».

اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك .

« اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ؛ وفى سمعى نوراً ؛ وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ؛ وتحتى نوراً ؛ وأمامى نوراً؛ وخلفى نوراً، واجعل لى نوراً ».

« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ؛ وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ».

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه عليه فى الصلاة :

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أنه قال لرسول الله ﷺ : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى.

قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر

الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم ».

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول بين السجدتين : « اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وعافنى ، وارزقنى ».

« عن معاذ رضى الله عنه ، أن الرسول ﷺ أخذ بيده وقال : يا معاذ : والله ، إنى لأحبك، ثم أوصيك : يا معاذ ، لا تدعن فى دبر كل صلاة : أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك ، وشكرك ، وحسن عبادتك ».

وعند الإفطار فى الصوم :

« الحمد لله الذى أعاننى فصمت ، ورزقنى فأفطرت ».

« اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فتقبل منى ، إنك أنت السميع العليم ».

عند الكرب :

« يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ».

وعند الكرب أيضاً :

« لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم » .

أما إذا كان الكرب شديداً فيحسن أن يكرر الإنسان دعاء الرسول ﷺ عند عودته من الطائف وهو من روائع بيانه ودقيق

مناجاته : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وإذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم ».

لسداد الدين :

« ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ لو كان عليك مثل جبل ديناً أداه الله عنك ، قل : اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك واغننى بفضلك عمن سواك ».

وعند الخروج من البيت :

« عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال إذا خرج من بيته : باسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان » .

عند النوم واليقظة :

« إذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم

يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا. وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ».

عند الأكل :

« الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة ».

عند الملبس الجديد :

« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له ».

وإذا رأى الهلال :

« اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلام والإسلام ، ربى وربك الله، هلال رشد وخير ».

وعندما ينتهى المجلس ويتفرق الحاضرون يقول :

« سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك ».

وعندما يودع شخصاً :

« كان رسول الله ﷺ يودعنا فيقول : استودع الله دينك، وأمانتك وخواتيم عملك ».

* * *

ومن العبـــادة الصّلاة على النبى ﷺ

والصـــلاة عليه أمر بها الله سبحـــانه فى كتابه فقـــال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [1]، والصلاة على النبى تكون بأية صيغة، وكل الصيغ فى الصلاة عليه مباركة ، والمأثور منها هى الصيغة التى فى التحيات.

والذكر بالصلاة على الرسول ﷺ ثماره شتى ، وفوائده عدة ، فضلاً عن العبادة نفسها : ونذكر من هذه الصيغ صيغتين:

الأولى منهمـا : للخروج من الضيق ، ولتيسير المعسر، وللخروج من الشدة وللفرج على جميع أنحائه للوصول إلى الخير وقد أخذناها عن العارف بالله المغفور له الشيخ أحمد أبو هاشم وهى ما يلى :

« اللهم صل على سيدنا محمد الحبيب الشفيع الرءوف الرحيم الذى أخبر عن ربه الكريم أن لله تعالى فى كل نَفس مائة ألف فرَج قريب ، وسلم » .

---

(١) الأحزاب ٥٦ .

أما الثانية : فإننا نسميها الصيغة التجريدية ، لأنها لا تشعر بمطلب زائد عن العبادة ، وهى قياس موفق على ما ذكره الرسول من القيمة العظمى للذكر بـ « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه وزنة عرشه ، ومداد كلماته »، والصيغة هى ما يلى :

« اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد عبدك عدد خلقك ورضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك » .

وقد أخذناها عن المغفور له شيخنا الكبير العارف بالله الشيخ عبد الفتاح القاضى صاحب الضريح المبارك فى شبلنجة من أعمال بنها .

وقد تلقاها هو فى رؤية منامية ، وهى صيغة مباركة، وإنا لننصح بتكرارها كلما أتيح للإنسان ذلك.

* * *

إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق

من هديه صلوات الله وسلامه عليه فى سبب بعثته.

« إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق ».

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ».

« إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق ».

« بعثت بالحنيفية السمحة » أ هـ.

أما هو صلوات الله وسلامه عليه فإنه رحمة مهداة إلى العالم.

« أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة ».

« تعلمون أنى رحمة مهداة ، بعثت برفع قوم ، ووضع آخرين » رفع من تبعوه عند الله، ووضع أمثال أبى جهل وأتباعه المشركين والملحدين ، وضعهم عند الله وفى ميزان التقوى على أنه :

« ما من شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق ، وإن الله يبغض الفاحش البذىء ».

والأخلاق لا وزن لها بدون الإخلاص ، ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ

ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ».

« إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ».

« دع ما يريبك إلا ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة [1] » ومعناه : اترك ما تشك فى حله واعدل إلى ما لا تشك فيه .

إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها .

قال : فما فعلت فيها ؟.

قال : قاتلت فيك حتى استشهدت.

قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟.

قال : تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن .

---

(١) قوله : يريبك : هو بفتح الياء وضمها.

قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ ؛ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار.

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟.

قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ومن هديه فى موقف المسلم بالنسبة للمنكر يراه :

« من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ومن المنكر ، السبع الموبقات .

« اجتنبوا السبع الموبقات » .

قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟.

قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات [1] » . الموبقات المهلكات .

---

(١) متفق عليه.

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه فيما يتعلق بصلة المسلم بأخيه المسلم :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

« لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

« مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم : كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ».

« المؤمن للمؤمن، كالبنيان يشد بعضه بعضاً »

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله ».

« عن أبى بكر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته يوم النحر بمنى ، فى حجة الوداع : إن أموالكم ، وأعراضكم ودماءكم ، حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ » .

« سباب المسلم : فسوق ، وقتاله : كفر ».

« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قلت : يا رسول الله ، هذا القاتل ؛ فما بال المقتول ؟ » .

قال : « إنه كان حريصًا على قتل صاحبه » .

« المسلم أخو المسلم : لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام: عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرئ من الشر ! أن يحقر أخاه المسلم ! » .

« المسلم أخو المسلم ! لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه ، كان الله فى حاجته ! ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة » .

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى عنه الله ».

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا : نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر ، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه.

ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة.

وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ».

« ومن بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه » أ . هـ.

« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة » فلينفس عن معسر أو يضع عنه ».

« كان رجل يداين الناس ، وكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه ، لعل الله يتجاوز عنا، فلقى الله فتجاوز عنه ».

عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ « أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى ؛ فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخًا لى فى هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟ قال: لا، غير أنى أحببته فى الله تعالى ، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة:

يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ؟ قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟!.

قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟!.

يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى . قال يارب : كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟!.

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى ، قال يا رب : كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟ ».

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه ، فى العلم :

« من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما صنع ! وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ؛ وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ».

« من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع ».

وبالنسبة للمرأة :

« لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم » .

فقال له رجل : يا رسول الله . إن امرأتى خرجت حاجّة، وإنى كنت فى غزوة كذا وكذا قال : انطلق فحج مع امرأتك .

« لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم ».

ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه ، فى الجهاد :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

« أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ».

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق » .

قال رسول الله ﷺ : تضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى ، وإيمان بى ، وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه بما نال من أجر وغنيمة ، والذى نفس محمد بيده ، ما من كلم [1] يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم وريحه ريح مسك، **والذى نفس محمد بيده ، لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ».**

---

(١) والكلم : الجـــرح.

من توجيهات القـــرآن

- ١ -

(أ) يقول الله تعالى فى كتابه العزيز :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [(١)].

وآيات القـرآن كثيـرة فى هذا المعنى ، تؤكد كلها أن بعثة الرسول ﷺ كانت نعمة عظمى من الله سبحانه على جميع المؤمنين، وأن هذا الفضل من الله سبحانه وتعالى ، إنما هو منة كريمة من لدن رب كريم .

ذلك أن هذا الرسول ﷺ إنما هو لسان صدق فى تبليغ آيات الله فهو يتلوها على المؤمنين ، إنه يتلوها عليهم بعد أن تلاها على نفسه ووعاها وتشربتها روحه فانطبع بها وعاشها، ومن أجل ذلك كان هذا الرسول ﷺ مصدر تزكية لهم ، إنه وقد أصبح طابعه آيات

---

(١) آل عمران ١٦٤.

الله أصبح - من أجل ذلك - مصدر تزكية بالمثال و القدوة والتأسى للمؤمنين .

لقد تزكى بآيات الله ، ولقد زكته آيات الله ، وإنه يتلوها ويحياها فهو يبشر بها بقوله ، أو بتلاوتها ، ويبشر بها بمسلكه ، فهو بقوله يتلوها وهو بمسلكه يرسمها .

ويعلمهم الكتاب ، إنه لا يتلو فحسب وإنما يعلم أيضًا ، إنه يشرح ويفسر ويطبق ويقوِّم تطبيق الآخرين إذا انحرفوا، وأنه يعلم القرآن .

وهو يعلم القرآن بعد أن انطبع به وبعد أن أصبح هو قرآناً، لقد أصبح فكره قرآناً ، وأصبحت عواطفه قرآناً ، وأصبحت إرادته قرآناً .

ولقد عبرت عن ذلك السيدة عائشة رضوان الله عليها خير تعبير وأخصره ، حينما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت رضوان الله عليها: « كان خلقه القرآن ».

وما كان يتأتى أن يكون غير ذلك، وكلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها إنما هى كلمة بدهية عند كل متبصر : فالقرآن كان يظل مبادئ يعتقد الناس أنها مجرد مبادئ نظرية يستحيل تحقيقها فى الخارج لو لم تطبق فعلاً، ولو لم تتحقق واقعياً ، وكان لابد من أن تتحقق بالفعل، وكان لابد من صورة حية تتمثل فيها

هذه المبادئ : تتمثل فيها ذاتيًا ، وتتمثل فيها من جهة تطبيقها على الغير وقيادة الغير إلى الأخذ بها فى صورة تقترب منها بقدر الاستطاعة.

ولو لم يكن الأمر كذلك : لظل الناس يؤمنون بأنها مجرد مبادئ.

(ب) بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق ، كما يحب الله سبحانه ، لبنى الإنسان قد تحققت بالفعل: حققها رسوله الكريم ﷺ ، وحققها فى ذاته ، وحققها فى مجتمعه ، حققها سلوكا ، وحققها واقعيًا ، هو فى نفسه على أكمل ما يكون التحقيق تطبيقًا **فى مجتمعه على الصورة التى استطاعها هذا المجتمع.**

ونقول : على الصورة التى استطاعها هذا المجتمع لأن لكل نظام من النظم حدًا أدنى لا يتأتى أن يكون النظام بدونه، وحدًا أسمى يتسامى نحوه المخلصون .

ولقد تحققت الصورة الإسلامية فى حدها الأسمى فى الرسول ﷺ وكان بذلك - بنص القرآن - أول المسلمين .

وترسم الآيات القرآنية :

كيف ؛ ولم ، كان الرسول ﷺ أول المسلمين ؟ يقول الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

(١) الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣ .

لقد كانت أعماله وحياته كلها بل ومماته؛ لقد كان كيانه كله حركة وسكوناً حياة وموتاً لله رب العالمين ، فكان بذلك أول المسلمين.

ولقد تحققت الصورة على تفاوت لا ينزل عن حدها الأدنى فى آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد وجد المجتمع الإسلامى بالفعل .

ولقد انتفت بذلك فكرة هؤلاء الذين رأوا فى الماضى أو يرون فى الحاضر أن الإسلام مبادئ لا تطبق ، مبادئ نظرية ، مبادئ خيالية يستحيل تطبيقها .

لقد تحقق الإسلام بالفعل ، فوجد مجتمعاً أسلم نفسه لله، وإن مجتمعاً يسلم نفسه لله لا يتأتى أن تتمخض الإنسانية عن خير منه.

هذا المجتمع الذى وجد إنما كان ثمرة من ثمار جهاد الرسول ﷺ وكفاحه فى أن يخرج بالفعل الصورة التى أوحاها الله إليه، لقد كان أثراً لتلاوة الرسول ﷺ آيات الله ولتزكية الرسول ﷺ لمن حوله بمثله القرآنى ، ولتعليمه صلوات الله وسلامه عليه القرآن لمن حوله.

وتشربت روح رسول الله ﷺ القرآن وامتلأت به وصفت بصفائه ، وتزكت به واستنارت بنوره، ففاضت بالحكمة أثرًا من آثار الهداية التامة ونتيجة للنور يغمر القلب وللسناء يتلألأ فى الفؤاد

فكان الرسول ﷺ يعلم الكتاب ويعلم الحكمة، وما الحكمة إلا أحاديث الرسول ﷺ ينير بها قلوباً ويرشد بها عقولاً ويقرب بها عباد الله إلى الله ، وكما أن الكتاب من عند الله ، فإن الحكمة أيضاً من عند الله ، يقول الله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (١).

وما كان رسول الله ﷺ ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، فآيات الله يتلوها ، وكتاب الله يعلمه ، والحكمة التى أنزلها على قلبه يعظ بها .

يقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

فذكر الله الكتاب وهو القرآن ، وذكر الحكمة فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله ﷺ.

وهذا يشبه ما قال والله أعلم.

لأن القرآن ذكر ، وأتبعته الحكمة، وذكر الله منّة على خلقه **بتعليمهم الكتاب والحكمة فلم يجز - والله أعلم - أن يقال : الحكمة ها هنا إلا سنة رسول الله .**

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله وأن الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال : لقول فرض

---

(١) النساء ١١٣.

إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله ؛ لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به.

وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد دليلاً على خاصه وعامه ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله .

(جـ) هذه الصورة التى ترسمها الآية الكريمة التى صدرنا بها هذا المقال - هى الصورة التى تمناها سيدنا إبراهيم ودعا الله سبحانه بها حينما كان يرفع القواعد من البيت وإسماعيل فقال عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

ولقد صادفت دعوة سيدنا إبراهيم **ما قدره الله أزلا. لقد وافقت** التقدير **الإلهى الأزلى الذى أراد سبحانه به أن يكمل** الدين ويتم النعمة على المؤمنين ، وأن يكون خاتم الأديان ، هو الدين الأزلى الخالد الذى لا دين سواه ، **والذى يرضاه الله ولا يرضى غيره وهو الإسلام.**

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (٢).

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (٣).

---

(١) البقرة ١٢٩.   (٢) المائدة ٣.   (٣) جزء من آية ١٩ آل عمران.

ولا يتـأتى فى عـرف المنطق وفى منطق الحق وفى بداهة العقول أن يكون الدين الخالد شيئاً آخر غير إسلام الوجه لله.

وما دام الرسول ﷺ أول المسلمين، وما دام الدين عند الله هو الإسلام، فالرسول إذن أول المتدينين على الإطلاق: إنه وصل إلى الدرجة التى سبق بها جميع من مضى ، وسبق بها جميع أبناء عصره، وسبق بها ما سيأتى بعده ، إنه أول المسلمين فى الماضى البعيد والماضى الذى يبتدئ منذ بدء الإنسانية .

وما من شك فى أن آدم عليه السلام كان مسلماً ولكنه لم يكن أول المسلمين ،ولقد كان نوح مسلماً ولكنه لم يكن أول المسلمين وهكذا . كان الأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم، من المسلمين . ولكن لم يكن أحد منهم أول المسلمين . وما كان يتأتى أن يكون أحدهم أول المسلمين؛ لأن الدين الذى جاءوا به صلوات الله عليهم وسلامه - وإن كان إسلاماً - فإن الصورة الكاملة التامة للإسلام إنما هى : القرآن .

﴿ وأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (١).

ويقول سبحانه : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (٢).

---

(١) المائدة ٤٨.

(٢) الزمر ٥٥.

وهو أول المسلمين فى الحاضر ، وهو أولهم فى المستقبل .
إلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وإلى ما بعد ذلك من آيات الله السرمدية ، صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله

* * *

من توجيهات القــــرآن

- ٢ -

يقـول الله تعـالى عن طابع الرسـالة الإسـلامـيـة وعن طابع الرسول ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١).

لقد كان إرسال الرسول ﷺ ، رحمة ، إذا نظرنا إلى الرسالة الإسـلاميـــة ،وكان إرساله رحمة إذا نظــرنا إلى شخصيــته. يقول ، صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة، وكان رحمة مهداة من حيث الذات.

لقـد كـان ينتـسب صلوات الله وسـلامـه عليـه إلى الرحـمن رسـالة، وينتـسب إلى الرحـمن صـفـات، وكـان ينتـسب إلى الرحيم رسالة، وينتسب إلى الرحيم صفات. إنه رسالة وصفات ، يسير فى حيـاته ، باسم الله الرحـمن الرحـيم ، مبـشـراً « باسم الله الرحـمن الرحـيم » إنه نبى الرحـمـة، وإنهـا رسـالـة الرحـمـة، والله سـبـحـانه

(١) سورة الأنبياء ١٨٧.

وتعالى قد ربى رسوله على عينه واصطنعه لنفسه فنشأه على الرحمة فهو صلوات الله عليه وسلامه رحمة منذ ميلاده.

وإننا إذا أردنا تعبيرا مجملاً جامعاً لمعانى الرحمة التى اتصف بها نبى الرحمة، فإننا نجده فى وصف السيدة خديجة رضوان الله عليها للرسول صلى الله عليه وسلم، حينما فاجأه الوحى وحدثها به وقال لها. (لقد خشيت على نفسى).

فقالت رضى الله عنها ، فوراً .

(كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق).

إن هذا الوصف الصادق للرسول ﷺ إنما يعبر فى كل جملة من جمله عن الرحمة (وهو وصف اتسم به الرسول ﷺ طيلة حياته) والآية القرآنية .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ لا تخصيص فيها ، لا من ناحية نوع الرحمة ولا من ناحية موضوع الرحمة. ويشرح هذه الآية فى شمولها وعمومها، يشرحها فى دقة وفى عمق موقف كريم من مواقف التوجيه النبوى . لقد كان الرسول ﷺ يتحدث عن الرحمة ويدعو إليها ويعرف بمنزلتها من الدين. فقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم (إنا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا) .

فلم يرض هذا القول رسول الله ﷺ لأنه فهم قاصر محدود لما ينبغى أن يكون عامًا شاملاً، إنه تقييد للمطلق، ولذلك رد عليه

الرسول ﷺ بقوله : « ما هذا أريد ، إنما أريد الرحمة العامة ». وما من شك فى أن من الرحمة : رحمة الأزواج والأولاد والأهل ، وقد حث على ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

بيد أن ما أراده الرسول ﷺ إنما هو أن تتغلغل الرحمة فى الكيان الإنسانى كله حتى تصبح وكأنها من فطرته وطبيعته وجبلته فيكون الإنسان وكأنه قبس من الرحمة الإلهية ينشرها إذا سار وينشرها إذا جلس ، وينشرها أينما كان ، وينشرها حيثما حل.

وإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقق الطابع العام للرسالة الإسلامية : رحمة للعالمين .

ولقد حقق الرسول ﷺ ، هذا الطابع بقوله ، وحققه بفعله، ولقد كانت الرحمة وهى طابع للرسالة الإسلامية هى طابع تصرفاته ، وانظر إلى الحادثة التالية ، الحادثة التى نزل فيها قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

وهى : لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون ، وأسر سبعون ، استشار النبى ﷺ أبا بكر وعمر وعليًا فقال أبو بكر: يا نبى الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإنى أرى أن

---

(١) الأنفال ٦٧.

تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكننى من فلان (قريب لعمر) فأضرب عنقه وتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه (يعنى العباس) فيضرب عنقه ؛ حتى يعلم الله أنه ليس فى قلوبنا هوادة (أى ميل) للمشركين.

أما رأى الرسول ﷺ فقد كان معروفًا يعرفه كل من عرف رسول الله وعرف طابعه وعرف له هذا بطابع الرسالة الإسلامية أنه أخذ الفدية، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه من أمثل الناس فى الاقتداء برسول الله ﷺ فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله ﷺ .

وهذا الاتجاه لرفيق الغار أيده الله سبحانه بل زاده عليه حينما خير رسوله فيما بعد بأنه إذا وضعت الحرب أوزارها له أن يمن وله أن يأخذ الفداء.

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ (١).

وقبل بدر أخذ الرسول ﷺ الفداء فقد فادى فى سرية عبد الله بن جحش قبل بدر بنحو عام .

فلما كانت بدر سار رسول الله ﷺ على سنته ، وتصرف مستلهمًا طابع الرسالة التى أرسله الله بها ، ولكن بعض الصحابة

---

(١) محمد آية ٤.

رضوان الله عليهم نظر إلى موضوع الفداء نظرة مادية وأخذ فى تقدير الفدية وزنًا وكيلاً وقيمة ومقدارًا وكمًا وكيفا، وأخذ فى تكييف الفدية بحسب الغنى والفقر، إن بعض الصحابة نظر إلى المسألة نظرة مادية فنزل قول الله سبحانه وتعالى ، مصححاً الوضع لهؤلاء الذين لم يضعوا الأمور فى وضعها الصحيح ولم يزنوها بميزان التوجيه الإلهى .

يقول الخطيب القسطلانى فى كتابه (المواهب اللدنية) فى ذلك. (فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال ما كان لنبى غيرك) أ هـ.

ويقول القاضى بكر بن العلاء . (أخبر الله تعالى نبيه فى هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء) أ. هـ.

والتوجيه الإلهى فى خاتمة رسالات السماء أنها رسالة رحمة، ولرسالة الرحمة ميزات وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها ، وما كان لنبى من قبل نبى الرحمة أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض. فلما كانت رسالة الرحمة ولما كان نبى الرحمة أباح الله له التصرف بحسب الرحمة وهو الفداء ، ثم زاده تكريمًا على تكريم حيث زاده رحمة على رحمة، فجعل له الخيار بين المن والفداء.

وإن كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها لا ترى ولا تحس ولا تشعر بالجانب المادي، ولكنكم يا هؤلاء الذين نظرتم

النظرة المادية تريدون عرض الدنيا وتتخذونه مقياساً إنه ليس بمقياس ، إن المادة ليست فى موازين الله مقياسًا. فإن الله يريد الآخرة ويريد للذين آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمدة من كتاب الله ومن توجيهات **رسوله ﷺ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (1) وإنه لمن أفضال الله على رسوله أنه سبحانه لم يقل : « أسوة » وحسب وإنما قال : « أسوة حسنة »** وقال سبحانه : **« أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ».**

ثم إن الله سبحانه لم يأمر المسلمين برد الفدية ، وما كان أيسر ذلك ، ولم ينقض الله سبحانه ما أبرمه رسوله المبرأ عن أن يسير إلا على بصيرة ، والمنزه عن أن يهدى إلا إلى الصراط المستقيم ، صراط الله .

هذه الفطرة الرحمية حملت الرسول ﷺ على أن يكافح طيلة حياته فى غير فتور ولا هوادة لهداية الإنسانية وإسعادها . لقد كان ﷺ يشق على نفسه فى سبيل ذلك ويحملها من الأمور مالا تطيق حتى لقد قال الله له .

﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ (2).

وقال سبحانه : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (3).

---

(1) الأحزاب : ٢١. (2) فاطر : ٨. (3) الكهف : ٦.

ولقد رسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه موقفه من الناس ، ومثله بموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردى فى نار يتهافتون على الاحتراق فيها ، ولعل الحادثة التالية تصور بعض جوانب التربية الرحمية التى كان يستعملها الرسول: ﷺ فى سلوكه مع الناس وهى وإن كانت خاصة برجل معين فإنها ليست بمقصورة عليه بل لها صفة العموم .

جاءه أعرابى يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه ﷺ ثم قال له مستفسراً متودداً: أحسنت إليك ! فقال الأعرابى لا ، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم الرسول ﷺ أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده ثم قال : « أحسنت إليك » .

فقال الأعرابى : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال النبى ﷺ: إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك . فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك.

وتحدث الأعرابى إليهم وطابت أنفس أصحاب رسول الله ﷺ بقول الأعرابى ، فقال صلوات الله وسلامه عليه هذا التعقيب الرائع .

« وإن مثلى ومثل هذا الأعرابى : كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً فناداهم صاحب

الناقة أن خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه إليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هوناً هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها.

وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار. أ. هـ.

لقد كانت نفس رسول الله ﷺ رحيمة حتى مع الأعداء.

لقد قيل له يوم أحد وهو فى أشد المواقف حرجًا : لو لعنتهم يا رسول الله ، فقال ، صلوات الله وسلامه عليه : « إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانًا » .

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له بالهداية والصلاح، وكان يريد باستمرار أن يشعر المسلمون بل الناس على وجه العموم بالتعاطف فيما بينهم. سئل مرة: أى الناس أحب إليك؟ فقال : أنفع الناس للناس . وسئل. أى الأعمال أفضل ؟ فقال . «إدخال السرور على المؤمن» وقال: « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله» .

وكانت رحمته . صلوات الله وسلامه عليه عامة شاملة ، حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم . لقد قال - يحث على الشفقة بالحيوان - « بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها. ثم خرج منها فإذا هو بكلب يلهث الثرى (يأكل الثرى

من شدة العطش) فقال لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذى بلغ بى ، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له» قالوا : يا رسول الله . وإن لنا فى البهائم أجرًا ! قال : « نعم ، لكم فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

وقال ﷺ : « دخلت النار امرأة فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض» .

لقد كان ﷺ رحمة ، وكان رحمة للعالمين.

خاتمـــة

فى مقام الرسول ﷺ فى الآخرة .

عن رسول الله ﷺ - فيما رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما قال : « **أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون مم ذاك؟! يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فينظرهم الناظر ويسمعهم الداعى وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم !! فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون يا آدم: أنت أبو البشر، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟! ألا ترى إلى ما نحن فيه** وما بلغنا ، فقال : إن ربى غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت، نفسى ، نفسى، نفسى، اذهبوا إى غيرى ، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحًا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض ، وقد سماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى ما نحن فيه ؟! ألا ترى ما بلغنا ؟! ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ فيقول : إن ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغشب

بعده مثله، وإنه قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومى، نفسى . نفسى . نفسى ، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك،، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى كذبت ثلاث كذبات ، نفسى . نفسى . نفسى .اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها ، نفسى . نفسى . نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس فى المهد ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبًا : نفسى . نفسى . نفسى ، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد ﷺ . وفى رواية : « فيأتوننى ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدًا لربى ، ثم يفتح الله علىّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلى. ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل

تعط واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأقول : أمتى يا رب ، أمتى يا رب، أمتى يا رب ، فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . ثم قال : والذى نفسى بيده ، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة : كما بين مكة وهجر . أو كما بين مكة وبصرى » .

وبعد فإنا نختم هذا الكتاب بالآيات القرآنية الشريفة التالية:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١).

* * *

---

(١) الجمعة ٢، ٣، ٤ .

أهم المراجع

طبقات ابن سعد
صحيح البخارى
سيرة ابن هشام
صحيح مسلم
رياض الصالحين
الأنوار المحمدية للنبهانى

الفهرس